MAG. 3990 - 71

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

معهد الثقافة الشعبية
رقم الجرد 407
تاريخ الوصول 27/10/03
رقم الترتيب AT-D/432

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم الثقافة الشعبية

كرامات الأولياء

رسالة لنيل شهادة الماجيستير

من تقديم الطالبة:
وحياني لخضر

تحت إشراف :
السيد الدكتور قلفاط شكري

أعضاء اللجنة:

السيد الدكتور حاجيات عبد الحميد	رئيسا
السيد الدكتور قلفاط شكري	مشرفا و مقررا
السيد الدكتور موسوني محمد	عضوا
السيد الدكتور سعيدي محمد	عضوا

السنة الجامعية: 2001-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

الذين آمنوا وكانوا يتّقون ﴾

سورة يونس الآية 62-63.

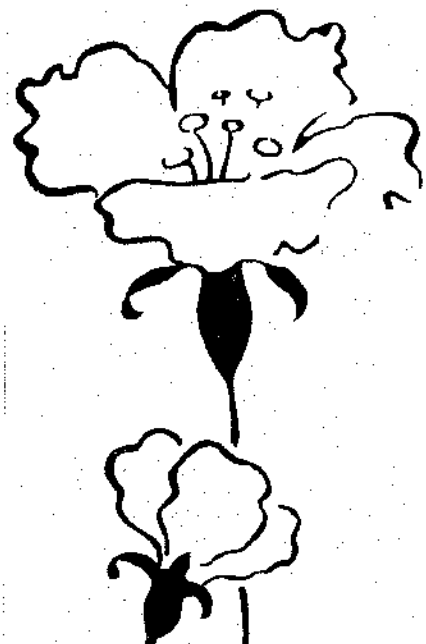

الإهداء

إلى روح والديّ الزكيّتين.

إلى زوجتي وأولادي.

إلى أخي الفاضل وأخواتي.

إلى أساتذتي أعضاء لجنة المناقشة.

وإلى كل من علّمني.

أهدي هذا الجهد المتواضع.

المقـــدمـــة

لقد تبوّأت شخصية الوليّ في التراث العربي الإسلامي المراتب العليا ، وأبهرت الناس فاعتقدوا فيها ونسجوا حولها الحكايات والأساطير. وأصبح الموضوع من الخطورة بمكان. ولم تلق تلك الظّاهرة مع انتشارها عناية كبيرة وجديرة من الباحثين رغم أهميتها. فمن المؤلّفات من تناولت الظّاهرة (ظاهرة الولاية) وتوقّفت عند طرقها ونظرياتها وجالوا في مبادئها وشعائرها. فأطراهم البعض واكتفى البعض الآخر بعرضه عرضا موضوعيا. وفئة ثالثة ، اقتصرت على اعتبار الموضوع من زاوية الواقع الاجتماعي. فكان كلّ ما وجدوا فيه غربة عن واقع الحياة وتجافيا عن فرص العمر وتخليا عن إمكانات المنافع. وعلى ذلك فقد انقسم المعنيون إلى إيجابيين متعصّبين له بفعل يقينهم له ، ومعرضين عنه بحكم مخالفته لرؤيتهم. ومحايدين ، شُغلوا بحواشيه ففاتهم الكثير من جوهره و لبابه. والحق أنّ الذي ينظر في هذا التراث ، وفي جزء كبير منه لا يحتاج من ينبّهه إلى ما فيه من مظاهر الذكاء والعقل والورع ، وما فيه من الإلحاح في إحياء العزيمة والقلب ، والدّعوة إلى تطهير النّفس من الإثم وأدران الغفلة والرّياء. والمتمعّن في هذا الموضوع خصوصا (موضوع الولاية) لا يجد فيه إلاّ الصدق في العواطف الدينية النّبيلة.

الصعوبات الموضوعية :

قبل أن يخرج هذا البحث على الصّورة الّتي هو عليها اعترضتني بعض المصاعب لم تثن من عزيمتي و الإصرار على إتمامه. فهي صعوبات تتعلّق بالموضوع وناتجة عن تراكم كيفيّات النّظر إلى التّصوف والّتي صارت تكيف نظرة المثقّف إليه. وإنّ الذي يعرف مجال التصوف ، يعرف كم هو متنوع ومختلف ومشكل. إنّه متنوّع وغزير الإنتاج. ومختلف لأنه كثير المصادر والمشارب إلى درجة أنه يبدو قد اختصر بداخله حقولا لمكونات الثقافة الإسلامية. وهو مشكل لأنه من أصعب المجالات الّتي تطرح فيها مشكلة الفرز والتّصنيف.

أمّا بخصوص الصّعوبات الأخرى فإنّ التصوف بكل أشكاله قد أثار من الخصومات والحملات بين مدافع ومهاجم ، ما لا يثيره مجال آخر من مجالات الثّقافة الإسلامية. من هنا كانت استحالة الفصل في مفهوم الكرامات ، موضوع البحث ، خاصة أنّ حقلا كهذا ما زال يخوضه الباحثون بوجل وتردد.

وصعوبة أخرى تمثّلت في قلة المراجع المتخصصة لاسيما في حقل الأنثروبولوجية وعلم الأديان المقارن.

استفدت ، كما استعنت في كتابتي من دراستي لبعض المراجع الأصلية وهي كتب التّصوف أولا ، ومراجع فكرية تعلّقت بالجانب الفكري والنّظري للموضوع. ودراسات نقدية. ولم يكن هدفي سوى طرح تساؤلات أكثر من تقديم إجابات. ومن هنا كانت المخاطرة مع موضوع شائك تكون الكتابة فيه عرضة للأخطاء وكلّ قراءة تحتمل التّعدد...

الخطّة المتّبعـــة :

فيما يخصّني اعتمدت التّقييم الرّوحي في ضوء الواقع الحديث فكان لا بدّ للمتصدّي لهذا العمل الشّاق من شروط من الموضوعية والتّعمّق. وصفاء التّأمل وسلامة التّفكير. والبحث يقع في ثلاثة فصول :

الفصل الأول :

في هذا الفصل حاولت أن أعرض بعض المصطلحات الأساسية ، مثل مصطلح " الكرامة " ومصطلح " الولي " ، وقدّمت مقارنة تاريخية قدر المستطاع لبعض الرؤى تتّصل بالمفهومين. فبيّنت نظرة أهل السّنة ونظرة الصوفية ، وحاولت أن أقارن بين بعض المفاهيم الّتي فيها تشابه مع مفهوم الكرامة ، حتّى أستخرج معنى المفهومين بصورة أجلى وأتم.

الفصل الثّاني :

حاولت في الفصل الثاني التطرق إلى أنواع الكرامات. فكان الكلام عن كرامات حسية ، شغلت بعض الباحثين ، وكان لهذه الظّاهرة رواسب سلبية ما زالت تعمل عملها في سلوك الجمهور العربي العريض. وكانت الأضرار النّاجمة عن التّخلف الفكري والنّفسي ، وما تولّد عن ذلك من فكر خرافي ، جعل بعض الدارسين يصرخ و بحق « إنّ الشخص الذي لا شك همّه معرفة مدى واقعية أو لا واقعية هذه " الكرامات " يستغرب كيف تنطلي مثل هذه الحيل على ذلك العدد الكبير من النّاس. وقد يثور ضد سذاجة الجهلة والمخدوعين ويصب جام غضبه على الفقهاء والوعاظ المسؤولين على نشر الفهم الصّحيح للدّين داخل الأوساط العامة ».

وأمّا الكرامة الحقيقية ، فحسب رأينا هي الكرامة المعنوية الّتي ارتبطت بالعلم والفهم والعقل. وارتبطت بالنّاحية الإيجابية من التّصوف، النّفسية والاجتماعية. من دعوة أخلاقية وتوجيه لسلوك الفرد ، توجيها صحيحا سليما حسب ما أتى به الدين الحنيف. فكان الولي إنسانا يحترمه النّاس ولكن لا يقدّسونه. يعيش بينهم كأيّ فرد منهم بحجمه الطّبيعي ، يحزن ويفرح و يخطئ في حقّ النّاس وفي حقّ نفسه. ويتفانى في خدمة خالقه والخلق ، ويلقى العتاب والعقاب. وكان التّركيز في هذا الفصل على أثر ابن عربي الذي اعتبره كثير من الباحثين من أعلام الفكر وأقطـــاب البيان.

الفصل الثّالث :

تطرقت في هذا الفصل إلى شخصية الولي بإيجابياتـــها و سلبياتـــها ، وطمحت أن أجلو بعض الغموض الذي اكتنف هذه الشخصية ، وقد مثّله بعض الدّارسين وبشيء من التعميم بـــ"السّاحر والمشعوذ". فقلت إنّ الولي هو شخصية تعبّر عن المثل الأعلى ، وأنه ظلّ في أدواره كلّها يعبّر عن ذلك المثل ، مخالفا ما عليه العامّة ، مخالفا القرّاء والفقهاء وأهل السنّة والمتفلسفين. معترضا لعداوتهم و اضطهادهم ، من غير أن تجرّه العداوات والاضطهادات عن حدود الحب

والتّسامح. ثم تطرقت إلى الأدوات الّتي مكّنته من الرّقي في المجال الروحي ، ورسم صورة الإنسان الكامل محاولا الجمع بين العقل والوحي ، ثمّ الكشف عن القيم الثابتة في المحيط الكوني المتحول.

دواعي اختيار الموضوع :

كان لانتسابي للفكر الصّوفي أثر في نفسي و ذلك منذ الصّغر ، وكنت أتردّد على حلق الذّكر والعلم في بعض مساجد المدينة. فكنت أهضم كلّ ما يقع في سمعي في تلك الحلقات. ومن ذلك ، الحديث عن الكرامات الّتي أُتــحف بها الأولياء والسلف الصّالح من هذه الأمة. وكنت أصدق تلك الأحاديث الشّيقة. إلاّ أن مطالعتي لبعض ما كتب بفكر نقدي و بصبغة عقلانية ، أوقع في نفسي تساؤلا حول طبيعة تلك الظّاهرة ومصداقية تلك الروايات. هذا جعلني أهتمّ بالموضوع ، خاصة وأنّه من الخطورة بمكان بالنّسبة لفرد يعيش في وسط مسلم.

وبعد ، فإني أعترف بأنّ الصعوبات حفّزتني على تحدّيها والاجتهاد في تذليلها إلاّ أنّها جعلتني أعترف أنّ الطالب يُكتفى منه بما يقع في طاقته ، وإنّي مطمئنّ أنّي ذلك الطالب الذي لا يملك غير الجهد والصبر. أما الزّمان فمن الكثير أن يصبر الطّالب على دراسة موضوع أكثر من عشر سنوات. وما أضيَق وقت الطّالب حين يتجاوز الأربعين !.

وفي الأخير فإنّي أعترف أن هذا البحث لم يخرج بالشّكل الذي هو عليه إلاّ بفضل المساعدة. ولا يسعني الامتنــان والتّقدير والشكر للأستــاذ المشرف : الدكتور الكريم قلفاط شكري على قبوله فكرة الموضــوع وتشجيعي منذ البدايــة. والدكتور المحترم : زمري محمد الذي وجدت عنده كل المساعدة و التّوجيه. كما أشكر الأستاذ : كروم بومدين الذي أمدّني بمراجع قيّمة. وأشكر سلفا فرقة قسم الثقافة الشعبية ، أساتذة ومسؤولين. فلهم جزيل الشّكر. ولكلّ من ساعدني ولو بنصيحة أو تشجيع. والكلمة الطيبة صدقة.

والله أسأل التّوفيق

الفصل الأول

الكرامات مفهومها وموقعها

المبحث الأول : مفهوم الكرامة وعلاقتها بالوليّ.

المبحث الثاني : الكرامة وخوارق العادات.

المبحث الثالث : الكرامة بين القبول والرفض.

الفصل الأوّل

الكرامات مفهومها وموقعها

المبحث الأوّل

مفهوم الكرامة وعلاقتها بالوليّ

الكرامة في مدلولها اللّغوي تعني الطّبق الذي يوضع على رأس القدر أو الحبّ. ويقال كَرُمَ الفرس : إذا رقّ جلده ولان شعره وطابت رائحته[1]. وفي الاصطلاح ، فقد أورد الدّارسون عدّة تعريفات تتّفق في بعض النقاط ، وتختلف في بعضها الآخر ، وذلك تباعاً لاختلاف الرؤى والمذاهب الّتي سنعرض بعضها :

I- مفهوم الكرامة عند أهل السنة وعند الصوفية :

رأي أهل السنة في الكرامات :

يعتبر أهل السّنة الكرامة أمراً خارقاً للعادة ، غير مقرون بدعوى النّبوة ، تظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم المتابعة لنبيّ كُلّف بشريعته مصحوباً بصحّة الاعتقاد والعمل الصالح ، علم بها أو لم يعلم بها. ولا تدلّ على صدق من ظهرت عليه ، ولا ولايته ، ولا فضله على غيره ، لجواز سلبها ، أو أن تكون استدراجاً ومكراً[2]. ويعتقد بعضهم أنّ من مظاهر كرامة الأولياء ما يتعلّق بأخبـــار الغائب وفيها ما يتعلّق بالقدرة والتأثير. فالأوّل هو

[1] – لسان العرب : ابن منظور ، المجلد 12 ، مادة كـــ.ر.م ، دار صادر للطباعة والنشر/ دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1956م ، ص 515. وينظر تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، باب الميم ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ج9 ، ط1 ، 1306هـــ ، ص 43.

[2] – الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية : عبد العزيز المحمّد السلمان ، طبعة 14 ، مطابع المدينة ، 1996 ، ص 311.

ما يتعلّق بالعلوم والمكاشفات ، فنجد قول عمر ﷺ في قصّة ســارية وهو على المنبر ورؤيته لجيش هذا الأخير فقال : يا ســارية الجبل ، تحذيراً له من عدوّه ومكره له من وراء الجبل. فسمع سارية قوله مع بُعْدِ المسافة ، وكان عمر بالمدينة والجيش بنهاوند. وإخبــار أبي بكر ﷺ أنّ في بطن امرأته أنثى. وإخبار عمر عمّن يخرج من ولده فيكون عادلاً. وقصّة صاحب موسى عليه السلام وعلمه بحال الغلام[1]. والآخر يدور حول القدرة والتّأثير كقصّة أصحاب الكهف وقصّة مريم ، والذي عنده علم من الكتاب في قصّة سليمان عليه السلام وقصّة العلاء بن الحضرمي من الصحابة. فإنّه لّما ذهب إلى البحرين سلكوا مغارة وعطشوا عطشاً شديداً حتّى خافوا الهلاك ، فنــزل فصلّى ركعتين ثمّ دعا بدعاء ، فجاءت سحابة فأمطرت حتّى ملأوا الآنية وسقوا الرّكّاب. ثمّ انطلق إلى خليج من البحر ما خيض قبل ذلك اليوم ، فلم يجدوا سفنا فصلّى ركعتين ثمّ دعا الله تعــالى وأخذ بعنان فرسه وقال : جزوا باسم الله. قال أبو هريرة ﷺ : فمشيْنا على الماء فوالله ما ابتلّ لنا قدم ولا خُفٌّ ولا حافر وكان الجيش أربعة آلافٍ[2]. ومن باب القدرة يذكرون الطّيران في الهواء كما في قصّة جعفر ابن أبي طالب ذي الجناحين ، وجريان النّيل بكتاب أمير المؤمنين عمر ﷺ ، وشرب خالد السّمّ و لم يحصل له ضرر. وما جرى لسعد بن أبي وقّاص في القــادسيّة ومرورهم على الماء بجنودهم ، ونزول الظّلة على أسيد بن حضير بالليل فيها مثل السّرج ، وما وقع لأبي قاسم الخولاني لّما ألقاه الأسود العنسي بالنّــار فأنــجاه الله منها. وأمّ أيمن لّما خرجت مهــاجرة واشتدّ بها العطش فسمعت حسّاً من فوقها فرفعت رأسهــا فإذا هي بدلو من ماءٍ فشربت منه ثمّ رفع[3].

وتظهر المعجزات في أمور شتّى منها : الأخبار الغيبية والقدرة على التّأثير. فالأخبار الغيبية والسّماع والرواية ، مثل إخبار النبيّ ﷺ عن الأنبياء المتقدّمين وأممهم ومخاطبته لهم

[1] – عبد العزيز الحمد السلمان ، المرجع السابق ، ص 311.

[2] – المرجع نفسه ، ص 315.

[3] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

وإخباره عن أمور الرّبوبية والملائكة والجنّة والنّار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلّمه منهم. ويُعلم أنّ ذلك موافق لنُقُول الأنبياء تارة بما في أيديهم من الكتب ونحو ذلك من النّقل المتواتر ، وتارة بما تعْلمُه الخاصة من علمائهم. وأمّا ما تعلّق بالقدرة والتأثير ، فمثل انشقاق القمر ومعراجه عليه السلام إلى السّماوات ، وكثرة الشّهب عند ظهوره وإسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وتكثير الماء في عين تابوك وعين الحديبية ونبع الماء من أصابعه وتكثير الطعام ...الخ. ومن باب القدرة ، عصا موسى عليه السّلام وفلق البحر والآيات التسع ، وناقة صالح ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى من طرف عيسى عليه السلام. ومن باب العلم إخبار قومه بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم.

ويجدر الذكر أنّ الوهّابيين لا ينكرون كرامات الأولياء ويعترفون لهم بالحقّ وأنّهم على هدى من ربّهم إذا ساروا على الطريقة الشرعية إلاّ أنّهم لا يستحقّون شيئاً من أنواع العبادات لا في حياتهم ولا بعد موتهم.

وسئل النَّسَفي عمّا قيل له أنّ الكعبة كانت تزور أحد الأولياء هل يجوز أن نقول به؟ فقال : « نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عند أهل السنّة من قطع المسافات البعيدة في المدّة القليلة من الزمان ». وقد رتّب على ذلك الفقهاء الحنفية والشافعية الكثير من المسائل الشرعية وذكر ابن حجر الشافعي أنّه إذا غربت على إنسان الشمس في بلدة وكان صاحب خطوة فحضر مطلعا آخر لم تغرب فيه بعدما صلّى المغرب في البلد الأوّل ، لا يلزمه إعادتها[1].

ويقول الشعراني في الأجوبة المُرضية سمعت شيخ الإسلام زكريا يقول : يكفينا في شرف طريق القوم أنّ الإمام أحمد بن حنبل كان إذا توقّف في مسألة يسأل عنها الشيخ أبا حمزة البغدادي ويقول له : ما تقول في هذه المسألة يا صوفي ؟ فإذا حلّ أبو حمزة إشكال

[1] – الشيخ محمد بن عبد الوهّاب ، عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية : أحمد بن حجر بن محمد بن عليّ ، مطبعة الحكومة، مكة المكرّمة ، 1395هـ ، ص 58.

تلك المسألة تعجّب الإمام أحمد من ذلك وكان يقول لولده : « يا ولدي عليك بالحديث ، وإيّاك ومجالسة هؤلاء الذين سمّوا أنفسهم صوفية. فإنّهم ربّما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه ». فلمّا صحب أبا حمزة البغدادي وعرف أحوال القوم عاد يقول لولده : يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم فإنّهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزّهد وعلوّ الهمّة. وقال : بلغنا أنّ الإمام أحمد ما أذعن للصوفية إلاّ بعد أن أرسل له أبو حمزة جماعة من الفقراء فنـــزلوا عليه في اللّيل من دور القاعة ، فتحادثوا مع الإمام أحمد طويلاً في أحوال أهل الطريق ، وأظهروا له علوماً ومعارف لم يكن سمعها قبل ذلك ، فاعترف بفضل أهل الطريق بعد ذلك ، ولمّا أرادوا الانصراف قالوا له يا أحمد طر معنا في الهواء ، فقال : لا أطيق. فقالوا : أثقلتك الشهوات. ثمّ صعدوا من صحن الدّار إلى نحو السّماء وهو ينظر[1].

رأي الصوفية في الكرامات :

عرّف بعضهم الكرامة بأنّها : أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدّي ، يوجب لصاحبه الاحترام والتخصيص لا التقدم والاتّباع ، إلاّ أن يظهر عليه كمال الاستقامة ، والاستواء في اتّباع الحقّ ظاهراً وباطناً على منهج السّداد بلا علّة ، فهي حينئذ توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور ، وإخلاص بلا التفات ، وتعيين بلا تردّد ، واستسلام بلا معارضة، وتفويض بلا تبرير ، وتوكّل بلا وهن[2].

[1] – جامع كرامات الأولياء : يوسف بن إسماعيل النبهاني ، الجزء الأول ، دار الفكر – بيروت – 1989 ، ص 30.

[2] – الرسالة القشيرية للأنصاري ، الجزء 3 – 4 ، د.ت ، ص 146.

وأمّا القشيري* فيرى أنّها أمر خارق للعادة على يد الوليّ غير مقرون بالتحدّي يظهر على عبد ظاهر الصّلاح ، ملتزم لمتابعة نبيّ من الأنبياء عليهم السلام لصحيح الاعتقاد والعمل الصالح[1].

وعند ابن عربي** هي أمر خارق للعادة يجريه الله تعالى على يد عبد صالح ولا يقترن بدعوى النبوّة ولا هو مقدّمة لها.

يتّضح من خلال ما سبق أنّ الكرامة عند أهل السنّة وعند الصوفية لها ثلاثة شروط وهي:

أ- أن تكون أمراً خارقا للعادة.

ب- أن يكون هذا الفعل غير مقرون بالتحدّي.

ج- أن تظهر على عبد ظاهر الصلاح متّبع لنبيّ.

II- مفهوم الوليّ عند أهل السنة وعند الصوفية :

جاء في لسان العرب أنّ الوليّ هو الصديق والنّصير. وفي قوله تعالى : ﴿ اللهوليّالذين آمنوا ﴾[2] ، ومعناه أنّ الله وليّهم في حجاجهم وهدايتهم وإقامة البرهان لهم ونصرهم على

* أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري النيسابوري الفقيه الشافعي ، كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر وعلم التصوف من تآليفه : التفسير الكبير ، الرسالة القشيرية المشهورة ، توفي سنة 485.

[1] – الرسالة القشيرية في علم التصوف : الإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري ، دار الكتاب العربي بيروت 1957 ، ص 158.

** – ابن عربي : هو محمد بن عليّ بن محمّد بن عليّ بن عبد الله الحاتمي ، يكنّى أبا بكر ، ويلقّب بمحيي الدين ويعرف بالحاتمي وبابن عربي. ولد في مرسية من بلاد الأندلس في رمضان 560هـ ثمّ انتقل إلى المشرق. توفّي في دمشق سنة 638 هـ. اعتبره البعض من أعلام الفكر وأقطاب البيان.

[2] – سورة البقرة ، الآية 257.

عدوّهم. وجاء عن ابن فارس أنّ الواو واللام والياء أصل صحيح يدلّ على قرب ومن ذلك: الوَلْيُ أي القرب. يقال تباعد بعد وَلْيٍ أي بعد قرب[1].

والولاية هي تولّي الأمر وكلّ من وَلِيَ أمر فلان فهو وليّه وعند أهل السنّة يعتبر وليّا كلّ مؤمن تقي ويدخل في ذلك الأنبياء عليهم السلام. وفي الاصطلاح يراد بهم من سوى الأنبياء فيمكن أن يقال أنّ الوليّ هو كلّ مؤمن تقيّ ليس بنبيّ.

وللولاية جانبان أحدهما يتعلّق بالعبد ، وهو القيام بالأوامر واجتناب النواهي ثمّ التدرّج في مراقي العبودية بالنوافل. والآخر يتعلّق بالله تعالى وهو محبّته لهذا العبد ونصرته وتثبيته على الاستقامة. فالولاية لها شرطان : شرط الإيمان والتقوى ، والعمل الصالح.

فالإيمـــان عند أهل السنّة قول وعمل. قول القلب وعمله ، وقول اللســـان وعمل الجوارح. فقول القلب هو الاعتقاد الجازم. وعمله قيامه بالعبادات القلبية كالإخلاص والمحبّة والخوف والرجاء. وأمّا التقوى ففعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهى عنه. وإذا قرنت بالبرّ كانت التقوى اسماً لتوقّي جميع المعاصي. والبرّ اسم لفعل الخيرات. قال ابن رجب « فظهر من ذلك أنّه لا طريق توصل إلى التقرّب إلى الله تعالى وولايته ومحبّته ، سوى طاعته الّتي شرعها على لسان رسوله »[2].

والأولياء على مرتبتين : مرتبة من يتقرّب إلى الله بأداء الفرائض ، وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين. ومرتبة من يتقرّب إليه بعد أداء الفرائض بالنوافل ، وهذه درجة السابقين المقرّبين. وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم هذين المرتبتين في سور : الواقعة والرحمان والإنسان والمطففين وفاطر.

[1] – لسان العرب : ابن منظور ، المجلد 15 ، مادة و.ل.ي دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1956 ، ص 411.

[2] – كرامات الأولياء بين أهل السنة ومخالفيهم : عبد اللطيف محمد الحسين، مجلة البيان ، رقم 120 ، الرياض ، ص 10 ، (عن طريق الأنترنيت).

فالله تعالى يتولّى أولياءه* وينصرهم ويؤيّدهم ويعينهم ويصلح أحوالهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأصحّ حديث عند الدارسين يروى في الأولياء هو قوله عليه الصلاة والسلام : « إنّ الله قال : من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده الّتي يبطش بها ورجله الّتي يمشي بها وإن سألني لأعطينّه ولإن استعاذني لأعيذنّه ، وما ترددّتُ عن شيء أنا فاعله ترددّي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته »[1]. فقد ذكر في هذا الحديث المقتصدون والسابقون.

ومن شرط الولاية عند أهل السّنة الاعتقاد الجازم في وحدانية الله وعدم الإشراك به شيئاً. فمن ادّعى الولاية بغير طريق الشرع كما بيّنه الرسول ﷺ تبيّن أنّه كاذب في دعواه.

والولاية مرتبة عظيمة لا يبلغها إلاّ من قام بالدّين ظاهراً وباطناً بفعل المأمورات وترك المنهيات ، فهي درجة عالية لا يصعد إليها إلاّ بسلّم الشريعة.

ومحبّة الله للعبد تتجلّى في اختيار الله للعبد الذي يقوم بالفرائض والنوافل معاً. وهذا الاختيار لسائر العباد يختلف عنه عن الأنبياء والأولياء الذين يتحصّلون على الإكرام باجتهادهم للتقرّب إلى الله. فأيّ إنسان توفّر فيه شرطيْ الإيمان الصادق والعمل الصالح ، فقام بالمأمورات وانتهى عن المنهيات بدافع من التقوى والخشية تحصّل على درجة الولاية.

وأمّا الصوفية فيرون أنّ الوليّ هو من توالت طاعته من غير تخلّل معصية ومن تولّى الله حفظه وحرسه على التوالي من كلّ أنواع المعاصي ويديم توفيقه على الطاعات والربّ وليّ

* الولي : « هو العالم بدين الله تعالى ، المواظب على طاعته ، المخلص في عبادته ». (عرّفه البخاري في صحيحه ، ج 5دار الهدى ، 1992 ، ضبط : مصطفى البغا ، ص 2385).

[1] – صحيح البخاري : الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق محمد علي القطب ، ج 4 ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1991 ، ص 2039.

العبد والعبد وليّ الربّ والعبد حبيب الربّ والربّ حبيب العبد ، فإذا بلغ العبد في الطاعة إلى حيث يفعل كلّ ما أمره الله وكل ما فيه رضاه وترك كلّ ما نهى الله فيفعل الله مرّة واحدة ما يريده العبد[1].

ويرى القشيري أنّ الوليّ هو الذي يتولّى عبادة الله وطاعته. فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللّها عصيان. فهو الذي توالت طاعته لربّه وارتفعت في درجات قربه. والوليّ هو من تولّى الله تعالى أمره فلا يكله لنفسه طرفة عين بل يتولّى الحقّ سبحانه رعايته وهو الذي توالت عليه النّعم من ربّه والحفظ له في قلبه وجوارحه من الزلاّت[2].

وعند الصوفية هي ولايتين : عامة وخاصة. فالعامة هي التصديق بما جاء به النبيّ ﷺ والقيام بالمأمورات. والخاصة هي محبّة الله للعبد وهي مزيد إحسانه إليه وحفظه ونصرته.

ففي اصطلاحهم إنّما هي الولاية الخاصة. والمراد بالأولياء خلّص المؤمنين لقربهم الروحاني من الله. آمنوا بكلّ ما جاء من عند الله ويقون أنفسهم كما يحقّ وقايتها عنه من الفعل والترك وقاية دائمة. جمعوا بين الإيمان والتقوى نقيّ عن الشرك أي تنزّه عن كلّ ما يشغل سره عن الله والتبتّل إليه بالكلية.

والأولياء هم المؤمنون المتقون. وشأن التبتّل والتنزّه له درجات متفاوتة على حسب تفاوت درجات استعدادهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الإلهية. فأقصاها ما انتهت إليه همم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. والولاية لها ركنان : أحدهما أن يكون ظاهره الانقياد للشريعة. والثاني أن يكون باطنه الاستغراق في نور الحقيقة ؛ وهو أن يكون فرحه بطاعة الله واستئناسه بذكره وأن لا يكون له استقرار مع شيء سوى الله.

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني : جامع كرامات الأولياء ، المرجع السابق ، ص 18.

[2] – أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 160.

وابن عربي يعتبر أنّ من الأولياء ، الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تولاّهم الله بالنبوّة. فمقام النبوّة مقام خاص في الولاية. والولاية نبوّة عامة ، والنبوّة الّتي بها التشريع نبوّة خاصة. ومن الأولياء الرّسل عليهم السلام تولاّهم الله بالرسالة. والملاحظة أنّ ابن عربي اعتذر عن عدم كلامه عن مقام النبوّة والرّسالة ، بأنّه ليس له ذوق ولا لغيره ممّن ليسوا بأنبياء فقال : « فحرام علينا الكلام فيه ، فما نتكلّم إلاّ فيما لنا فيه ذوق فما عدا هذين المقامين : يعني مقام النبوّة والرسالة ، فلنا الكلام فيه عن ذوق لأنّ الله ما حجره »[1].

ويرى ابن عربي أنّ للأولياء مراتب على اختلاف أحوالهم فيقول : « اعلم أنّ رجال الله في هذه الطريقة هم المسمّون بعالم الأنفاس ، وهو اسم يعمّ جميعهم. وهم على طبقات كثيرة وأحوال مختلفة. ومنهم من تجمع له الحالات كلها والطبقات. ومنهم من يحصل له من ذلك ما شاء الله. وما من طبقة إلاّ لها لقب خاص من أهل الأحوال والمقامات. ومنهم من يحصره عدد في كلّ زمان. ومنهم من لا عدد له لازم فيقلّون ويكثرون. فممّن لم يحصرهم عدد بل يزيدون وينقصون : الملامتيه وهم أهل طريق الله وأئمّتهم وسيد العالم فيهم ومنهم وهو محمّد ﷺ وهم الحكماء الذين وضعوا الأمور مواضعها وأحكموها وأقروا الأسباب في أماكنها ونفوها في المواضع الّتي ينبغي أن تنتفي عنها ولا أخلّوا بشيء ممّا رتّبه الله في خلقه. فما تقتضيه الدار الأولى تركوه للدار الأولى ، وما تقتضيه الدار الآخرة تركوه للدار الآخرة. فنظروا في الأشياء بالعين الّتي نظر الله إليها لم يخلطوا بين الحقائق. فهذه الطائفة مجهولة أقدارهم لا يعرفهم إلاّ سيّدهم الذي حباهم وخصّهم بهذا المقام.

ومنهم الصوفية وهم أهل مكارم الأخلاق. ويقال : من زاد عليك في الأخلاق زاد عليك في التصوّف. مقامهم الاجتماع على قلب واحد. أسقطوا الياءات الثلاث فلا يقولون لي ولا عندي ولا متاعي ؛ أي لا يضيفون إلى أنفسهم شيئاً. وهذه الطبقة هي الّتي يظهر عليهم خرق العوائد عن اختيار منهم ، ليقيموا الدلالة على التصديق بالدّين وصحته في

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 86.

مواضع الضرورة. ومنهم من يفعل ذلك لكونه صار عادة لهم كسائر الأمور المعتادة عند أهلها ، فما هي في حقّهم خرق عادة ، فيمشون على الماء وفي الهواء كما يمشي النّاس وكل دابة على الأرض »[1].

إذا كان الوليّ بهذه الصفة أو كما قال القشيري في وصفه كما سبق أن أشرنا فهل الولاية تستلزم العصمة ؟

يقول القشيري : « وتستلزم الولاية دوام الحفظ من الله للوليّ في السرّاء والضرّاء. يحفظه من تماديه في الزلل والخطأ إن وقع فيهما ، بأن يلهمه التوفيق للتوبة فيتوب منهما. ولا يقدحان في ولاية الوليّ لعدم ثبوت العصمة له الّتي لا تكون إلاّ للنبيّ لأنّه مبلّغ عن الله ما أرسل به. وعصيان الوليّ ليس كغيره من العامة »[2].

وكما تقدّم فإنّ معاصي العباد وطاعاتهم لا تؤثّر في محبّة الله وعداوته. فالطاعة والمعصية محدثة، وصفات الله غير متناهية فلا يؤثّر المتناهي في القديم. ويستفاد من عدم القطع بالخاتمة إمكان وقوع العبد ، مهما كان في معصية سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ثمّ إنّ الوليّ بشر يجوز عليه ما يجوز على الناس من الغلط والسهو والظنّ الخاطئ ونحو ذلك ، ولا يقدح ذلك في ولايته ، إذ قال الله تعالى : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتّقون لهم ما يشاؤون عند ربّهم ذلك جزاء المحسنين ليكفّر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾[3] ، فأثبت لهؤلاء المتقين المحسنين ذنوباً ، وأنّه يغفرها لهم ، ولم تكن تقواهم مستلزمة لعصمتهم من الذنوب. وهناك

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 80.

[2] – أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 160.

[3] – سورة الزمر ، الآية 33-35.

رأي مفاده أنّ الصوفي لا يكون صوفيا حتّى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة. قال أبو الحسن الشاذلي* : « أي لا يقع منه ذنب إلاّ استغفر منه »[1]. وقيل إنّ الوليّ في أربع أوقات. ولله عليه في كلّ وقت سهم من العبودية تقتضيه الربوبية ، فمن كان وقته المعصية فسبيله الاستغفار والتوبة.

ويقول ابن عربي : « إنّ الوليّ إن ظهر بأمر يوجب حدّاً في ظاهر الشرع ثابت عند الحاكم أقيمت عليه الحدود. ولا يعصمه الاحتمال من أن يكون من العبيد الذين لا تضرّهم الذنوب عند الله ، أو أبيح لهم ما حرّم الله على غيرهم شرعاً. فأسقط عنهم المؤاخذة ولكن في الدار الآخرة. فالذي يقيم عليه الحدّ من حكّام الرسوم مأجور وهو في نفسه غير مأثوم كالحلاج »[2].

إذا كانت الكرامة تتّصل دائما بذكر الوليّ فهل هي شرط للولاية ؟

ترى الصوفية أنّ الكرامة ليست كالمعجزة تجري وجوباً عليه ، إذ أنّ الكرامة من الجائزات. فقد يكون الوليّ ولياً وإن لم تخرق له عادة. وليست الكرامة عنواناً للأفضلية. فيحتمل أن يكون الوليّ العديم الكرامات أفضل ممّن ظهرت عليه. يبيّن ابن عربي هذه المفاضلة بقوله : « ... أمّا الكبريت الأحمر والإكسير الأكبر الفعّال المنـــزّه عن الالتفات والمالك لجميع الصفات ، والعريّ عن جميع الآفات وهو العروس المخبوء العين في حجاب الصون ، في غيابات الكون ، وظُلَم العوائد المعروفة عند الخلق ، لا يُعرف ، لا يُعرف! بل يُكشَف وقتا ولا يُكشَف ، لا يؤبه له. تجده في دكّان مضطجعاً تنُوشَه للكلاب ، أو بهلولاً

* علي بن عبد الله بن هرمز الشاذلي المغربي أبو الحسن ، رأس الطّائفة الشّاذُلية. من المتصوفة ولد في (غمارى) من قرى إفريقية ، تفقه وتصوف بتونس ورحل إلى المشرق ثم سكن الإسكندرية. توفي 1195م (الأعلام للزركلي).

[1] – ابن عطاء الله السكندري : لطائف المنن ، المرجع السابق ، ص 30.

[2] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 39.

يرمى بالحجارة ، لا يعبأ به ولا يُنظر إليه. حجبه غيرَة منه عليه. وهذا ليست تكون له كرامة أصلاً ، فقد تكون وقتاً ما لأمر ما. وأمّا أن تستمرّ له فلا ، لسرّ خفيّ »[1].

فقد بيّن أنّ هذا الصنف من الأولياء مع جلالة قدرهم ، فإنّ صدور الكرامات على أيديهم قليل. وهم مخبّئون بين النّاس وأحوالهم مجهولة مستترة. يقول ابن عربي في ذلك :

تَرْكُ الكَـــرَامَةِ لاَ يَكُونُ دَلِيـــلاً فَاصْـــغَ لِقَوْلِي فَهُوَ أَقْوَمُ قِيـــلاً
إِنَّ الكَـــرَامَةَ قَدْ يَكُونُ وُجُودُهَا حَظُّ المُكْرَمُ ثُمّ سَـــاءَ سَبِيـــلاً

وإنّ ترك الكرامة قد يكون ابتداءً من الله ، وأنّ الله لا يُمَكِّن هذا الوليّ في نفسه من شيء من ذلك جملة واحدة ، مع كونه من أكـــابر عباده. وقد يعطي الله تعـــالى وليّاً في نفسه التمكّن من ذلك فيترك ذلك كلّه لله فلا يظهر عليه شيء أصلاً. وسئل أحد الصوفية : هل أعطاك الله التصرّف ؟ فقال : « نعم ، منذ خمس عشر سنة وتركناه تظرفا ، فالحق يتصرّف لنا »[2].

ولأجل أنّ الكرامة تثبيت لمن أظهرت له ، فربّما وجدها أهل البدايات في بداياتهم ، وفقدها أهل النهايات في نهاياتهم. إذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى تثبيت. وهكذا كان السّلف رضي الله عنهم ، لم يحوجهم الحق إلى وجود الكرامات الحسيّة لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الاشهادية. فالكرامة دافعة لزلزلة الشك في المنّة[3].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الكرامات في زمن الصحابة وإن كثرت قليلة بالنسبة لما يروى منها بعدهم وظهورها على أيد الأولياء. ويُبرَّرُ ذلك أنّ الصحابة رضي الله عنهم كان إيمانهم

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 38.
[2] – المرجع نفسه ، ص 21.
[3] – ابن عطاء الله السكندري ، المرجع السابق ، ص 49.

قوياً فلم يحتاجوا إلى زيادة يَقْوَى بها إيمانـــهم. وغيرهم ضعف الإيمان في عصرهم ، فاحتاجوا إلى تقويته بإظهار الكرامة. والصحابة ربّما استُغني عمّا يظهر على أيديهم اكتفاءًا بعظيم مقدارهم ورؤيتهم لرسول الله ﷺ ، ولزومهم طريق الاستقامة ، مع ما فتح على أيديهم من الدنيا فلا اشرأبّوا لها ولا جنحوا نحوها ولا استزلّت واحداً منهم. لم يكن تَوْقُهم إلاّ لإعلاء كلمة الله والدعوة إليه. ثمّ إنّ هداية غيرهم حصلت في زمانـــهم بمعجزات الرسول ﷺ. والكرامة ليست عنواناً للأفضلية وإنّما لزيادة اليقين. فقد يكون من لم تظهر له الكرامة أفضل ممّن ظهرت عليه.

وفي شرحه لحكم ابن عطاء الله قوله : « ليس كلّ من ثبت تخصيصه كمل تخليصه » قال ابن عبّاد : « التخصيص هنا أن يُظهر الحقّ تعالى على بعض عباده أثرته وعنايته وتولية لطفه ورعايته. فمنهم من يستمرّ له ذلك حتّى يتحقّق بالعرفان ويتخلّص من رؤية الأغيار والأكوان. وهؤلاء هم خواص المقربين أهل العلم بالله والحب له »[1]. ومنهم من يعتبر الكرامة لا شأن لها كبير. فقد يتحف الله البعض من أصحاب اليمين العبّاد والزهاد وأهل المجاهدة والأوراد. وهؤلاء وإن شاركوا أهل التحقيق فيما يمنحهم من لطائف الكرامات ومن القيام بوظائف الطّاعات والعبادات إلاّ أنّهم لم يتخلّصوا من رؤية نفوسهم و لم ينفكّوا من مراعاة حظوظهم بل هم ساكنون إلى الأسباب ومرتبطون بوجود الحجاب. وقد يختصّ الله تعالى هؤلاء بإظهار الكرامات على أيديهم تسكيناً لأنفسهم وتثبيتاً لليقين في قلوبـــهم ويمنعها الأوّلين لأنّهم لا يحتاجون إليها لما هم فيه من الرّسوخ في اليقين والقوّة في التمكين. وقد يكون من لا يُكاشَف بشيء من معاني القدرة أفضل ممّن يُكاشَف بها. فالقدرة أثر القادر ، ومن أُهّل لقرب القادر لا يستغرب شيئاً من القدرة ويرى القدرة تتجلّى له من سجف أجزاء الحكمة[2].

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 44.

[2] – المرجع نفسه ، ص 45.

ويسجّل أنين بلاثيوس[1] في معرض كلامه عن الكرامات وجود توافق تام بين رؤية ابن عربي وكبار الصوفية المسيحيين مثل القديس يوحنا الصليبـــي والقديسة تيريزا الأبيلية ، فيما يتعلّق بخاصية الكرامة بأنّها امتحان أوّلي ينظر بها الله في النفوس هل تطهّرت من كلّ تعلُّق بالمحسوسات ، أو أنّها ترتبط بها وتجد فيها السّلوى وتقف عندها. والكرامة في نظره هي حث للوليّ على متابعة السّير نحو الكمال الروحي. وهي مكافأة موقوتة لا تضمن الثواب في الآخرة بل قد تقلّل منه وتصبح أحياناً فرصة ومصدر خطر للغرور الروحي ، وتبعاً لذلك باعثاً على الهلاك.

III- وظيفـــة الكرامـــة :

إنّ النفس لا تطمئنّ إلاّ برؤية العين ؛ لأنّ من جبلّتها الشكّ. فظهور الكرامات حسب الصوفية هو أعظم في النفوس وأوقع. فيحصُل الإيمان عند من لم يؤمن ، ويزيد قوّة عند المؤمن. وهي تستحقّ الاهتمام لما فيها من تقوية الإيمان بوجود الله تعالى وقدرته الباهرة. فظهور الكرامات علامات صدق من ظهرت عليه في أحواله. وفي ظهورها قوّة يقين وزيادة بصيرة لتحقّق الوليّ أنّ ذلك فعل الله فيستدلّ في نفسه على صحة ما هو عليه من العقائد. وصاحب الكرامة إنّما وجدها لإظهـــار الذل والتواضع لله. والكرامات لاحقة لمعجزة الرسولﷺ وهي من جملة معجزاته. وهي بجميع أنواعها لا تخلو من الحكمة والفائدة والنفع.

فالكرامة إذا ظهرت للوليّ عَظُمَ ؛ لأنّها شاهدة له بالاستقامة مع الله تعالى وقد تظهر في الوليّ لغيره. والمراد هو تعريف ذلك الإنسان الذي شهدها بصحة طريق الوليّ. قال أبو الحسن الشاذلي : « لا يستوي من تعرّف إلى الله بنوره كمن تعرّف إليه بعقله »[2].

[1] – ابن عربي حياته ومذهبه : أنين بلاثيوس ، ترجمة : عبد الرحمان بدوي ، دار القلم ، بيروت ، 1979 ، ص 206.

[2] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 47.

والكرامة هي تثبيتٌ لمن ظهرت له. فربّما وجدها أهل البدايات في بداياتهم وفقدها أهل النهايات في نهاياتهم. وفي هذا يروى أنّ رجلاً صحب سهلا بن عبد الله فقال يوما : « ربما أتوضّأ للصلاة فيسيل الماء بين يديّ قضبان ذهب وفضة. فقال سهل : أما علمت أنّ الصبيان إذا بكوا أعطوا خشخاشة ليشتغلوا بها »[1]. وقال السهروردي : « وخرق العادة إنّما يُكاشف به لموضع ضعف يقين المكاشَف رحمة من الله ثواباً معجّلاً »[2].

وتظهر للوليّ تأديباً لنفسه وتهذيباً لها. روي عن سهل بن عبد الله[3] أنّ رجلا كان بالبصرة وكان من أبناء الدنيا ذو مال كثير فخرج من الدنيا ، يعني من جميع ماله وتاب وصاحب سهلا. فقال له يوماً : « إنّ نفسي هذه ليست تترك الصّيـــاح والصّـــراخ من خوف فوت القوت والقوام ». فقال له سهل : « خذ ذلك الحجر وسل الله أن يصيّره لك طعاماً تأكله ، قال وإمامك في ذلك إبراهيم الخليل عليه السلام فقد قال الله تعالى حاكيا عنه: ﴿ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي ﴾[4] ».

ومن فائدة الكرامة عند الصوفية تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية. إذ من الصوفية من لم يتخلّص من رؤية نفسه و لم ينفك من مراعاة حظه، ولكنّه ساكن للأسباب ومرتبط بوجود الحجاب ، فيختصه الله تعالى بإظهار الكرامات تسكينا لنفسه وتثبيتاً لليقين في قلبه.

وقد يحتجّ الوليّ على نفسه بالكرامة لتصحيحها عن فوت الرزق الذي قسم الله له ويكون سببا لرياضة نفسه وتأديبها. وقد يحتجّ بعض الأولياء على غيره لكي لا يتغيّر حاله معه. وفي ذلك ورد أنّه جاء جماعة إلى الجنيد ، فقال رجل منهم لأبي حفص النيسابوري :

---

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 47.

[2] – المرجع نفسه ، ص 37.

[3] – المرجع نفسه ، ص 47.

[4] – سورة البقرة ، الآية 260.

« قد كان فيمن مضى لهم الآيات الظاهرة من الكرامات وليست لك شيء من ذلك. فقال له أبو حفص : تعال فجاء إلى الحدّاد عنده كير عظيم ، فأحمى حديدة عظيمة فأدخل يده في الكير، فأخذ الحديدة المحماة فأخرجها فبردت في يده. فقال له : يجزيك هذا ! »[1].

والحكمة من ظهور الكرامات في اعتقاد الصوفية هو إظهار سيادة خاتم النبيين ﷺ على سائر الأنبياء ، واستمرار دينه إلى قيام الساعة. إذ الحاجة إلى أسباب التصديق مستمرة، زيادة على وجود القرآن سيّد المعجزات. وحصولها إنّما هو إثبات صحة الدين وزيادة إيمان المؤمنين وهداية غيرهم. وقد كان الشيخ أبو مدين التلمساني يقول لأصحابه : « أظهروا للناس ما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة (يعني خرق العوائد) والباطنة (يعني المعارف) »[2].

ومن جهة أخرى تعتبر الكرامة من جملة الخطاب الصوفي ، الذي هو مجموع خصوصي لتعابير تتحدّد بوظائفها الاجتماعية ومشروعها الإيديولوجي. وهي تعرف كما أسلفنا من خلال المعجزة لإثبات الروابط وتأكيد استمرارية النبوة في الكرامة. فالآيات لله والمعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء. فالكرامة حسب هذا الخطاب تفرض نفسها كاستمرار للنبوة ، لأنّ النبوة الّتي انقطعت هي نبوة التشريع وحدها ، نبوة الحدود والأحكام. أمّا النبوة العامة أو الولاية العامة هي نبوة المعرفة ، نبوة الإلهام والعرفان ، فهي مستمرة في شخص الأولياء وذلك باصطفاء من الله.

فالوليّ يشترك مع النّبيّ في أنّ قصدهما واحد ، وهو تحقيق الخير للمؤمنين والدفاع عن الدين ومحاولة تحقيق عالم نعيمي تسوده الطمأنينة والهدوء ، وذلك بإبراز دور الإيمان والعمل الصّالح في الرّقي بطاقات الإنسان إلى المعارج السامية.

ومن الدارسين من يرى أنّ دور الوليّ مثل دور النبيّ يكمن في الحفاظ على علاقة الدنيوي بالقدسي أي بالله. وبفضل الوليّ يحفظ الله الأمّة والكون ، وبفضل تقواه وصلاحه

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 47.

[2] – المرجع نفسه ، ص 74.

يحفظ الله الدنيا كلّها. والأولياء هم الذين يكفلون وصول الغذاء الروحي للعالم. ويوجد في منظور الصوفية بعض الأسماء الّتي تدلّ على أنّ العارفين يشدّون الكون كي لا ينهار فهناك أسماء الأوتاد والعمد الأربعة حسب الجهات الأربعة. والكرامة تحكي القدرات الخارقة والخالقة للظواهر الكونية عند الوليّ في طريقه من السلوك البشري حتّى التحقّق. ويتمّ ذلك بطرائق وممارسات تجعله يقترب من الله وبالتالي يكتسب طبيعة فوق بشرية كما يقول علي زعرور ، تضاف إلى طبيعته الأولى أو تمحوها. وهو منذور لتحقيق الخلاص ، خلاصه الفردي وخلاص الجماعة. ويجتهد في التخلّص وتخليص الجماعة من حالة الفرق إلى حالة الجمع. ولا يتحقّق ذلك إلاّ إذا فنيت النفس عن كلّ شيء وعن كلّ فعل لها. وبقدر ما تفنى النفس عن كلّ رسم يكون لها البقاء الآخر ؛ أي البقاء مع الله وأن يقوم الله عن النفوس وأن تبقى هذه له وبه. فدور الوليّ هو الارتقاء بالذات الإنسانية وحملها من وجودها الناقص الوهمي والعادي ، إلى الوجود الكامل النقيّ والحقيقي. والمعرفة هنا هي دهش وحيرة ورحيل داخل الأشياء وفناء. وبالفناء يفقد الوجود في نفس الوليّ تعيناته وتحديداته وقيوده ويعود إلى أصله اللاتحديد واللاتعيين. ويتمّ التطابق بين الحالة الذاتية للوليّ والحالة الموضوعية والحقيقة للعالم المعروف ؛ إذ يصبح الله سمعه وبصره ورجله ويده[1].

وأمّا ابن خلدون فيعتبر أنّ « أصحاب الكرامات لهم من الإمداد الإلهي حظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسّكهم بكلمة الله ، وإذا اقتدر أحدهم على أفعال الشر فلا يأتيها لأنّه مقيّد فيما يأتيه ويذره للأمر الإلهي. فما لم يقع لهم فيه إذن لا يأتونه ، ومن أتاه منهم عدل عن طريق الحقّ وربّما سلب حاله ، والوليّ مقيّد بفعل الخير »[2].

[1] – الكرامة الصوفية في منطقة تلمسان : دراسة أنثروبولوجية سيميائية من خلال مدونة ابن مريم ، رسالة لنيل شهادة الماجستير ، حكيم ميلود ، 1998 ، ص 73 وما بعدها.

[2] – المقدمة ، تاريخ العلامة ابن خلدون : عبد الرحمان ابن خلدون المغربي ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، بيروت، 1982 ، ص 879 وما بعدها.

المبحث الثاني

الكرامة وخوارق العادات

I- الكرامة والخوارق الأخرى :

العـــادة هي تكرار الشيء المعتاد ووجوده على طريقة واحدة بتجدّد صفته أو بقـــائه على صفة واحدة. والعادات تختلف حسب الزمان والمكان. ويقال في اللغة عادة فلان : إفشاء السلام. وهناك عادة يستوي فيها جميع النّاس دون بعض ، وعادات لأهل عصر دون غيرهم، وعادة الملائكة دون غيرهم ، وعادة الجنّ دون الملائكة ودون الناس ، وربّما كانت عادة الإنس دون غيره ، فلا يجب ما يخرق عادة الإنس خارقا لعادة الجنّ فلذلك لا يتساوى الخلق كلّهم[1].

ويجب التنبيه إلى الفرق الشاسع بين الكرامة والمعجزة ، فلا تطابق بينهما ، لأنّ المعجزة هو ما ينفرد الله بالقدرة عليه ولا يكون في مقدور الخلق من الملائكة والبشر والجنّ في أي وقت كان مثل اختراع الأجسام وإحياء الأموات. فالإعجاز عند النبيّ هو إفراده وإقداره على خرق العادة ومنع الغير منها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض الباحثين قد تكلّم عن فعل خارق للعادة من سنن الله الّتي لا يقع عليها علم البشر ولا تدركها أعمالهم ولا أسبابـــهم. والأمر الخارق للعادة إمّا أن يكون للخير فيظهر على رجل صالـــح أو منه فهو كرامة ، وإمّا يكون بضدّ ذلك فيظهر أمر خارق على يد رجل بعيد عن طاعة الله. ولهذا ينبغي التفريق بين الكرامة والأفعال الخارقة الأخرى.

---

[1] – البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر : أبو بكر الباقلاني ، صحّحه ونشره الأب ريتشارد يوسف ماكاتي ، المكتبة الشرقية ، بيروت ، د.ت ، ص 16.

الكرامة والاستدراج :

الاستدراج هو أن يعطي الله تعالى العبد كلّ ما يريده في الدنيا ليزداد غيّه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كلّ يوم بعدا عن الله. وبتكرار الأفعـــال هذه تصبح عنده ملكة راسخة وبعد ذلك يميل القلب كليّة إلى الدّنيا فيحصل له مراده وتحصل له لذّة بالأشياء فيزيد ميلاً ، ويزيد العبد في سعيه ذلك... ولا تزال العلاقـــة بين هذه الأحوال تتزايد وتقوى ويزيد بُعْد العبد عن الله درجة فدرجة إلى أن يتكامل. ويسمّى الاستدراج مكراً وكيداً وإملاءاً وإهلاكاً. فالمستنتج من هذا أنّ إيصال الله العبد إلى مراده من مرغوباته ومحبوباته من الدنيا ، ومن الشهـــوات لا يدلّ على كمال الدرجات. فقد قـــال الله تعـــالى في ذلك : ﴿ أيحسبون أنّما نمدّهـم به من مال وبنين نسارع لهـم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾[1] ، فدلّت الآية الكريمة على أنّ كثرة الأشيـــاء لا تعني الخير ، بل قد تصبح شرّاً إذا لم يراعى فيها أمر الله سبحانه تعـــالى.

فالكرامة لا يستأنس بها صاحبها ، بل تصير خشيته من الله أشدّ. فإنّه يخاف أن يكون ذلك استدراجاً. أمّا صاحب الاستدراج ، فإنّه يستأنس بالذي يظهر عليه ، ويظنّ أنّه مستحقّ لتلك الكرامة فيستحقر غيره ويتكبّر ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه ، ولا يخاف سوء العاقبة. فإذا ظهرت هذه الأحوال على صاحب الكرامة دلّ ذلك على أنّها استدراجاً لا كرامة. والاستئناس بالكرامة يقطع الطريق إلى الله لعدّة أسباب منها :

أ- إذا اعتقد الرجل أنّه مستحقّ لهذه الكرامة فيفرح بها وبنفسه.

ب- الفرح بغير الله حجاب عنه تعالى ، والمحجوب عن الله لا يليق به السرور.

[1] - سورة المؤمنون ، الآية55-56.

ج- يظنّ أنّه استحقّ الكرامة بعمله وطاعته ، ومن كان هذا ظنّه كان جاهلاً ؛ إذ كلّ عمل في جنب الله كما يرى العارفون بالله ، تقصير. وكلّ شكر في جنب آلائه قصور. وكلّ معرفة وعلم به في مقابلة عزّه حيرة وجهل.

د- إذا ترفّع وتجبّر وتكبّر بسبب تلك الكرامة فقد بطل ما به وصل إليها. فالنبيّ ﷺ لم يفتخر بمناقب نفسه وفضائلها ، وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين.

هـ- إذا فرح العبد بما أوتي من علم وزهد فقد يكون مصيره كإبليس. فقد قال الله تعالى فيه : ﴿ وكان من الكافرين ﴾[1]. أو كبلعم إذ قال الله تعالى في حقّه : ﴿ فمثله كمثل الكلب ﴾[2].

إنّ الافتخار بالنفس وصفاتها هي من صفات إبليس وادعاؤه بالكذب. فغرضه إنّما هو تزيين النفس وتقوية الحرص والعجب وهذا من المهلكات.

الكرامة والسحر :

ذهب المؤرّخون للسحر أنّ السحر بعيد الغور في تاريخ البشرية واستدلّوا على ذلك بما خلّفه الإنسان من كتابات ورموز وتصاوير وأساطير وجدت في الخرائب والقبور. واستناداً إلى قوله تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحر أو مجنون ﴾[3] ، يظهر أنّ جميع الأمم واجهت رسلها بهذه المقابلة ، وهي اتّهامهم بالسحر والجنون. وهذا يعني أنّ جميع الأمم عرفت السحر. وهذا العلم حدث في المجتمع الإسلامي بعد صدر منه. وعند ظهور الغلاة من المتصوّفة وجنوحهم إلى كشف حجاب

[1] - سورة البقرة ، الآية 34.

[2] - سورة الأعراف ، الآية 176.

[3] - سورة الذاريات ، الآية 52.

الحسّ ، وظهور الخوارق على أيديهم والتصرّفات في عالم العناصر ، وتدوين الكتب والاصطلاحات[1].

ويرى الباقلاّني[2] « أنّ السحر هو من الأحوال الشيطانية الّتي تظهر على أيدي المنحرفين من سحرة وكهنة ومشعوذين ، وكثير من أقسامه لا يتأتّى إلاّ بالتوسّل بالأرواح الشيطانية واستخدامها والتعلّق بها ، والسحر يدرج في خانة الخوارق ، إلاّ أنّه استدراج وهو حيلة يتوصّل بها المشعوذ إلى فعل ما هو في قدرة النّاس ليس ما يستحيل عليهم ».

واحتجّ القائلون بوجود السحر حقيقة بقوله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكنّ الشياطين كفروا يعلّمون النّاس السحر وما أُنزل على الملكيْن ببابل هاروت وماروت ﴾[3] وقال الإمام مالك : « واختلف في معنى السحر. قال بعضهم هو خدع ومخاريق ومعان يفعلها الساحر حتّى يخيّل للمسحور الشيء أنّه بخلاف ما هو به على حقيقته »[4]. واختلف الدارسون في مدى تأثير السحر. ففريق يرى أنّ السّاحر لا يستطيع قلب الأشياء عن حقيقتها واستسخار شيء من خلق الله ، أو إنشاء شيء من الأجسام وإنّما هي خدع متخيّلة يراها النّـــاظرون بخلاف حقائقها. وقالوا: « لو كان في وسع السّحرة إنشاء الأجسام وقلب حقائق الأعيـــان كما هي من الأشياء لما كان بين الحقّ والباطل فصل ولجاز أن تكون جميع المحسوســـات ممّا سحرته السّحرة فقلبت أعيانا »[5].

---

[1] – عالم السحر والشعوذة : د. عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس ، الأردن ، ط3 ، 1997 ، ص 52.

[2] – أبو بكر الباقلاّني ، المرجع السابق ، ص 120.

[3] – سورة البقرة ، الآية 102.

[4] – أبو بكر الباقلاّني ، المرجع السابق ، ص 120.

[5] – المرجع نفسه ، ص 122.

واستشهد القائلون بالسحر كذلك بما جاء في الأثر من حديث عائشة رضي الله عنها قالت فيه : « سحر رسولَ الله ﷺ يهوديٌّ من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتّى كان رسول الله ﷺ يخيّل إليه أنّه يفعل الشيء وما يفعله »[1].

إنّ السحر هو من الأعمال الشريرة الّتي بيّنها الله لعباده ، كالزنا والسرقة وسائر المعاصي كما بيّن الخير وذلك عن طريق أنبيائه ورسله ويرى المفسّرون أنّ السحر إنّما يضرّ بقضاء الله ، وأمّا من حفظه الله من مكـــروهه فلا يضرّه قال البـــاقلاّني : « لا يعمل الساحر شيئاً في المسحور بل ذلك من فعل الله. ما يفعله السّـــاحر إنّما هو من مقدورات له توجد في نفسه ومحلّ قـــدرته ، يفعل الله عنده السقم في الصحيح وغير ذلك »[2]. ويذكر من عمل السحر : سقم الصحيح وموته ، بُغض المحبّ وحبّ المبغض والربط والشدّ وضيق الصدر ...الخ.

ومن المعاصرين ، يذهب سيد قطب إلى أنّ « السحر خداع الحواس ، وخداع الأعصاب والإيحاء إلى النفوس والمشاعر ، وهو لا يغيّر من طبيعة الأشياء ، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها ولكنه يخيّلُ للحواس والمشاعر بما يريده السّاحر »[3].

والفرق بين السحر والكرامة من وجوه :

أ- السحر علم مكتسب يحصل بالتعلّم والصناعة وهو يتمّ بمعاناة أقوال وأفعال ، والكرامة هبة ومنحة من الله لا تحتاج إلى شيء من المعاناة.

ب- الكرامة لا تظهر على فاسق ، والسحر لا يظهر إلاّ على فاسق. فالوليّ الذي تظهر عليه الكرامة من أفضل الناس نشأة ومزية وخُلقاً وأدباً وأمانةً ورفقاً وبعداً

[1] – د. عمر سليمان الأشقر ، المرجع السابق ، ص 92.

[2] – أبو بكر الباقلاّني ، المرجع السابق ، ص 122.

[3] – د. عمر سليمان الأشقر ، المرجع السابق ، ص 73.

عن الدناءات والكذب والتمويه ونبيّه له أسوة. وأمّا الساحر فعلى العكس من ذلك كلّه لا تجده في موضع إلاّ ممقوتاً حقيراً بين النّاس وأصحـــابه وأتباعه. يقول ابن حجر : « ينبغي أن يعتبر بحال من يقع الخارق منه ، فإن كان متمسّكاً بالشريعة متجنّبا للموبقات فالذي يظهر على يده من الخوارق كرامة وإلاّ فهو ساحر ، لأنّه ينشأ عن أحد أنواعه كإعانة الشياطين »[1].

ج- كرامات الأولياء على حقائقها وبواطنها كظواهرها. وكلّما يتأمّلها المرء يزداد بصيرة في صحّتها ، ولو جهد النّاس كلّهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ظهر عجزهم عنها. ومخاريق السحرة وتخييلاتهم إنّما هي ضرب من الحيلة والتلطّف لإظهار أمور لا حقيقة لها.

د- إنّ الكرامة مثل المعجزة لا يمكن إبطـــالها. أمّا السحر فيمكن إبطـــاله. يُذْكَر أنّ راية كسرى وكانت تدعى " زركشن كاوبان " كان فيها الوفق المئيني العددي منسوجاً بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق ، وأهل الطلسمات والأوذاق يزعمون أنّ هذا الوفق الذي كان في الراية مخصوص بالغلب في الحروب، وأنّ الراية الّتي تكون فيها أو معها لا تنهزم أصلاً. ولكنّ هذه الراية سقطت في معركة القادسية كما سقط قائد الفرس رستم وتمرّغت بالوحل، فقد عارض هذا السحر الذي تلبّست به هذه الراية المدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول الله ﷺ وتمسّكهم بكلمة الله فانحلّ كل عقد سحري ، ولم يثبت أمام جحافل الإيمان ، وبطل ما كانوا يعملون[2].

هـــ- الكرامة قد يتحدّى بها الولي عند اللّزوم والسحر مصروف عن مثل هذا التحدّي.

[1] - د. عمر سليمان الأشقر ، المرجع السابق ، ص 75.

[2] - المرجع نفسه ، ص 78.

الكرامة والمعجزة :

المعجزة هي أمر خارق للعادة تكون مع رجل يتّصف بالنبوّة ويكون صادقاً في دعوته. ويظهر أنّ المعجزة وأحكامها لا تخرج عمّا يلي :

- أنّ يكون المعجز ممّا ينفرد الله بالقدرة عليه.
- أنّ يكون ممن يخرق العادة وينقضها.
- أنّ يكون غير النبيّ لا يقدر عن إظهار مثله.

والمعجزة تكون للنبيّ إذ لا بدّ له من آية يفصل بها المكلّفون بصدقه بينه وبين الكاذب كمسيلمة الذي بصق في البئر ليزداد حلاوة فازداد ملوحة. وكانت معجزة نبيّ الإسلام عليه الصلاة والسلام هي القرآن الكريم ففيه مزية لا توجد في غيره من الآيات إذ هو آية باقية حاضرة لا يحتاج في العلم بوجودها إلى إخبار ونقل.

يرى الصوفية أنّ المعجزة للنبيّ دليل صدقه في إخباره عن الله تعالى. فربّما تطاول الزمن بين النبيّين ووهت الأخبار ودرست الآثار وقست القلوب فاحتاج المكلّفون إلى منبّه وأحوال تنقض العادة وتجدّد في النفوس علم ما دثر وتطاولت مدّته. فإذا وجب على النبيّ إظهار معجزاته من أجل دعواه ، يجب على الوليّ ستر كرامته لأنّه غير مدّع ولا ينبغي له ذلك لأنّه ليس بمشرّع.

والسؤال الذي يطرح : هل الكرامة من جنس المعجزة أو مغايرة لها ؟ والإجابة عن هذا السؤال اقتضت الوقوف عند رأي أهل السنّة ورأي الصوفية.

فأهل السنّة يفرّقون بين كرامة الوليّ ومعجزة النبيّ. فأبو إسحاق الإسفرائيني يرى أنّ « المعجزات دلالات صدق الأنبياء ودليل النبوّة لا يوجد مع غير النبيّ فللأولياء كرامات شبه إجابة الدعاء ، فأمّا ما هو من جنس ما هو معجزة الأنبياء فلا »[1].

وعند آخرين ، تختصّ المعجزات بالأنبياء والكرامات بالأولياء لأنّ من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوّة بها ، والذي يظهر على الوليّ لا يكون معجزة. وأمّا القائلون بأنّ الكرامة قد تكون نوعاً من المعجزة فإنّهم يعتبرون أنّ الفارق بينهما هو تحدّي النبوّة فقط ولا يشترطون أن تكون الكرامة مغايرة للمعجزة في جنسها وعظمها.

ويعتبر ابن فورك أنّ « المعجزات دلالات الصدق فإن ادّعى صاحبها النبوّة فهي معجزة وتدلّ على صدق دعواه وإن أشار إليها إلى الولاية دلّت على صدقه في حاله أي ولايته فسمّيت كرامة وإن كانت من جنس المعجزة »[2].

ويرى القشيري أنّه يجوز إظهار الكرامات الزائدة في المعاني على معجزات الرّسل لأنّ هذه الكرامات لاحقة بمعجزات الرسل وكل كرامة ظهرت على واحد من أمّته فهي معجزة من جملة معجزاته[3].

ومنهم من يرى الكرامات من جملة المعجزات فهي مظهر لسيادة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام على سائر الأنبياء بكثرة معجزاته في حياته وبعد موته وسبب استمرار دينه إلى قيام الساعة. فالحاجة حسب رأيهم مستمرّة ومنها هذه الكرامات في أمّته الّتي هي في الحقيقة معجزات النبيّ عليه الصلاة والسلام زيادة على وجود القرآن الكريم سيّد المعجزات

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 34.

[2] – المرجع نفسه ، ص 34.

[3] – الأنصاري : شرح الرسالة القشيرية ، المرجع السابق ، ص 153.

وزيادة على ما أخبر به من أشراط السّاعة وغيرها تدريجا فكأنّه موجود بين أمّته يشاهدون معجزاته بعد موته[1].

ويرى الشعراني أنّ جمهور العلماء يقولون بأنّ ما كان معجزة للنبيّ جاز أن يكون كرامة لوليّ. أمّا ابن عربي فلم ينف أن تكون للوليّ قدرات هائلة تبلغ درجات المعجزة فيقول : « إنّ الصّوفية لم يكن لهم نفي لمشاهدتهم إيّاها في أنفسهم وفي أصحابهم إذ هم أصحاب كشف وذوق. ولو ذكرنا ما شاهدنا منها وما بلغنا من الثقات منها لبهت السامع، وربّما رمى بها لقصور نظره لنفس من أظهرها الله تعالى على يديه وشخصه واحتقاره له. فلو تكمل بأن نظر للفاعل القادر المختار سبحانه الذي أجراها على يده لم يكن ذلك عنده بكثير »[2]. وفي معرض ردّه على الإسفرائيني يرى أنّه لا يجوز أن تكون الكرامة معجزة إذا ما اشترط الرسول في وقت تحديه بمنع وقوعها في ذلك الوقت خاصّة لعدم حصول المعارضة للنبيّ ، أو في مدّة حياته. وليس بعد انقضاء زمنه الذي اشترطه. ويشترط ابن عربي أنّ الوليّ لا يقوم بذلك الأمر لنفسه ولكن تصديقا لذلك النبيّ الذي يتّبعه. وهذا ما يؤكّده بقوله : « ليس في قضية العقل ببعيد أن يكرم الله تعالى وليّاً من أوليائه بهذه الكرامة ويجريها على يده ، وتلك الكرامة تتمثّل في إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، كلّ ذلك بإذن الله »[3]. ويشير ابن عربي في ذلك إلى ما وقع للنبيّ إبراهيم عليه السلام ويستشهد بهذه الحادثة لمّا صيّر الأطيار أحياء يسعون بعد ما أمر الله تعالى أن يقطعهنّ ومزج لحمهنّ بعضه ببعض وجعل على كلّ جبل مجاور جزءاً. وأمّا شهاب الدين السهروردي فيرى أنّه قد يكون للأولياء أنواع الكرامات كسماع الهواتف من الهواء والنّداء من بواطنهم وأن تطوى لهم الأرض ويعلمون بعض الحوادث بعد تكوينها وذلك كلّه ببركة متابعة النبيّ عليه السلام وهذه الكرامات تتمّة لمعجزاته.

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 36.

[2] – المرجع نفسه ، ص 33.

[3] – المرجع نفسه ، ص 34.

الكرامة والأسطورة :

شكّلت الأسطورة عبر حقبة من الزمان من تاريخ الشعوب واحداً من الردود الكثيرة لتفسير الوجود ، وشكلاً مرتكزاً على الفكر الغيبـــي. وكوّنت نوعاً من العقيدة الكونية ، ومن فلسفة مثالية ، واقترنت حتّى بالسياسة ، وارتبطت عند الإغريق بتواريخ الأديان وتواريخ الأبطال والأجداد.

وأوّل من استخدم كلمة أسطورة (Mythos) هو أفلاطون. ويعني تعريفه أكثر من حكاية القصص الّتي توجد فيها شخصيات أسطورية من آلهة وأبطال يونانيين. وأهمّ ما يميّز الأسطورة هو *التهويل وطلب الغريب ونشدان العجائب*. وتختصّ بانتمائها في أكثر أحيانـــها بالمقدّس. وهي قريبة من القصّة. ويذهب بعض الباحثين أنّ الأسطورة لا تكون كذلك إلاّ إذا ارتبطت بقضية دينية من نوع ما لا صلة له بالدين الصحيح ، ولا بالتاريخ الصّحيح. فهي مرتبطة بمظهر ديني خرافي وتتناقض بشكل صريح مع الحقيقة من حيث هي ، دينية كانت أو تاريخية. وتحاول الأسطورة أن تعكس الرؤية الفنية وتحقيق المستحيل الذي يقصر العقل أن يصل إليه أو يصدّقه. فالأسطورة جمال في أنّها تقرّب البعيد وتبعد القريب ، وتنفي الثابت وتثبت المنفي ؛ أي أنّها تفرض بطبعها وطبيعتها المستحيل ، بل التعامل معه والتمكين له.

والأسطورة ترتبط بجميع الطقوس والفعاليات البشرية الهامّة ، مثل الطعام والجنس والشغل والتعليم ...الخ. فجميع مجالات الحياة الإنسانية يمسّها التقديس الدّائم وذلك بنقلها من العادي الدنيوي إلى المقدّس عبر استعادة الأفعال المثالية. وأمّا الشخصية الأسطورية فهي غير الشخص الفيزيقي ، إنّما هي صورة فنيّة لشخص متخيّل في عمل مسرحي يقوم على ابتكار الخيال المحض. ونلاحظ أنّ الشخصية هي باهتة البناء شاحبة الملامح غامضة التمثّل.

ويرى أحد الباحثين أنّ الأسطورة اتّسمت بالقدم ؛ أي بما هو قبل خلق العالم. وتشكّل قصر إيديولوجي منيف وناجح من عناصر متفرقة. ولا يهمّ عدم مطابقتها للواقع والتاريخ. وهي بمثابة شبه حلم جماعي له رموزه ومنطقه الخفيّ وراء استتارها اللاعقلاني.

وتعتبر الطقوس والأساطير صيغ لاتصال الآلهة مع البشر. الأساطير لاتصال الآلهة مع البشر ، والطقوس لاتصال البشر مع الآلهة. وإنّ العقل البشري يبدع الأساطير بنفس الطريقة وهذا ما يفسّر تشابه الأساطير عند البشر. والأسطورة عند مرسيا إلياد[1] هي قصة خلق كما عند لويس طروس وشخصياتـــها كائنات خارقة للعادة. فبالأسطورة تظهر قدسية أعمالهم وطبيعتها الخارقة. وكلّ أفعـــال الآلـــهة والأسلاف ممّا ترويه الأساطير تدخل في دائرة الحقيقي والقدسي والموجود ، في مقابل ما يفعله الناس العاديون الذي هو وهـــمي وليس له وجود حقيقي.

فالأساطير تشكّل النماذج العليا والمثالية الّتي تعيّن للإنسان ذو الطابع الديني سلوكه وأفعاله. وكلّ ما ارتبط بالحقيقي القدسي قلّ تعرّضه للمتاهة والضّلال. فكلّ ما لم يمسّه القدسي يبقى عديم المعنى. والاندماج في القدسي يفترض التقليد والمحاكاة ؛ أي تقليد الأفعال الّتي قامت بها الكائنات الخارقة الّتي تسيطر على الكون ، ومن ثمّ تجاوز العادي والناقص في الإنسان.

والإنسان لا يحقّق إنسانيته الحقيقية حسب رؤية إلياد إلاّ بمقدار ما يحاكي الآلهة وأبطال الحضارة أو الأسلاف الأسطوريون. ويبقى الإنسان بطبيعته يحلم ويتجاوز نقصه بتمثّل القدرة الإلهية في ذاته. ولذلك يبحث لتجلي القدسي ، وهذا للسيطرة على الأشياء. « ويريد الإنسان الديني صنع نفسه والابتعاد عن الاختيارات الدنيوية باقترابه من النماذج

[1] – المتخيل والقدسي في التصوّف الإسلامي ، الحكاية والبركة : الميلودي شغموم ، المرجع السابق ، ص 55.

الإلهية ، وهذه قد حفظتها له الأساطير وتواريخ الآلهة. فالتاريخ الذي يهمّ هذا الإنسان هو التاريخ القدسي وليس الطبيعي »[1].

وهذه السمات للأسطورة جعلت البعض يسقطها على الكرامة عند الوليّ ، واستنتاج محاكاة هذه الأخيرة لها. غير أنّه ممّا تقدّم تظهر الكرامة في التراث الإسلامي مغايرة لما اتّسمت به الأسطورة من دعوة إلى عبادة الأسلاف وتعظيمها وغير ذلك.

وأمّا العرب والمسلمون فقد عرّفوا الأساطير ولكن بمعنى الأباطيل والخيالات الّتي لا أصل لها. ويعرّفها الزمخشري في الكشّاف أنّها الخرافات والأكاذيب. وقد ورد هذا اللفظ في عدّة آيات من القرآن الكريم بهذا المعنى. وقد عرّفها البعض بأنّها حكايات عن كائنات تتجاوز تصوّرات العقل الموضوعي.

وذهب بعض الدّارسين إلى أنّ الأحداث الأسطورية عند العرب قد وقعت معظمها إمّا قبيل ظهور الإسلام ، وإمّا إبّان مولد الرّسول ﷺ أو على عهد دعوته. وتاريخ ظهور الإسلام حافل بالمعجزات وزاخر بالظواهر والتضحيات والانتصارات الباهرة لدى الذهنية الشعبية الّتي عملت على عكس ذلك في معتقداتـــها.

وكان العرب يعتقدون في السعالي تزوجت الرّجالَ من الإنس. والغول تعبث بالمسافر إذا اعتزل بيداء. والنّسناس يستطيع أن يمشي برجل واحدة ، ويبطش بيد واحدة ، ويبصر بعين واحدة. ويجزئه نصف فم ونصف رأس ونصف بطن. إنّها كائنات غريبة ولكنّها موجودة حسب زعمهم[2].

[1] – الميلودي شغموم ، المرجع السابق ، ص 52.

[2] – الميثولوجيا عند العرب : دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة : د. عبد المالك مرتاض ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الدار التونسية للنشر ، 1989 ، ص 16.

وهذه المعتقدات قد امتازت بما شحنت به من جمال وبراءة وخيال. والتّراث العربي يعجّ بهذه الأساطير الجميلة الّتي لا علاقة لها بالواقع ولا بالتاريخ.

ولعلّ الحكاية الشعبية ذات الأصل التاريخي légende في المفهوم الأدبي ، وهي قصّة شعبية خارقة تقوم على أساس تاريخي هو الأشيع والأعمّ في التراث الأدبي العربي ؛ حيث الكثير من السير الشعبية ومنها سيرة عليّ بن أبي طالب ﷺ ومغامراته ومبارزته الغول ذات السبع رؤوس ، ووصول دم الأعداء في معاركه إلى ركبتيه كما تقول بعض الأساطير. وأمّا الأساطير بالمعنى الحقيقي فقد قضت عليها تعاليم الديانة الإسلامية بما صقلت من عقيدة ، ورقت من تفكير وأماطت من شرّ وضلال عن سبيل النّاس. وإذن فالأسطورة بمعناها المتعارف عليه ليس لها أساس في التراث العربي الإسلامي.

II- الولي وادّعـاؤه للكرامـة :

لقد اختلف الدّارسون في جواز ادّعاء الوليّ الولاية. فأنصار دعوى الولاية يرون أنّ الفعل الخارق للعادة يدلّ على أنّ ذلك الإنسان مبرّأ عن المعصية وأنّ هذا الفعل يدلّ على صدق المدّعي ، إن كان نبيّاً في معجزته أو وليّاً في ولايته. وليست الكرامة طعناً في النبوّة وإنّ النبيّ يَدّعي المعجزة ويقطع بها ، وأمّا الكرامة فلا يقطع بها. كما يجب نفي المعارضة عن المعجزة ولا يجوز نفيها عن الكرامة ومن ناحية أخرى لا يجوز ادّعاء الولاية إلاّ إذا أقرّ ذلك الإنسان أنّه على دين النبيّ فتصير الكرامة معجزة لذلك النبيّ وتأكيداً لرسالته ومقوّية لها.

وأمّا المعترضون على ادّعاء الولاية فيفاضلون بين المعجزة والكرامة ويرون أنّ المعجزة تكون دائماً مسبوقة بدعوى النبوّة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية ، ذلك أنّ الأنبياء بُعثوا إلى الناس لدعوتهم إلى الإيمان والهداية ونقلهم من المعصية إلى الطّاعة ، فإقدام الأنبياء على دعوى النبوّة ليس الغرض منه تعظيم النفس وإنّما امتثال لأمر الله.

إذا كان النبيّ يعرف ابتداء أنّه نبيّ فهل الوليّ يعرف كونه وليّ ؟

احتجّ المانعون على معرفة الوليّ نفسه كونه وليّاً أنّ الله تعالى يقول : ﴿ ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتّقون ﴾[1] ، فإذا عرف الوليّ أنّه وليّ حصل له الأمن وهذا غير جائز لقوله تعالى: ﴿ فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾[2] وإنّ الأمن لا يحصل إلاّ عند اعتقاد عدم القدرة وهو في حقّ الله تعالى كفر ، ثمّ إنّ الطاعـــات ولو كثرت فإنّ قهر الله غالب فلا يحصل الأمن ، والأمن يقتضي زوال الخدمة والعبودية وترك الخوف وهذا يجلب العداوة مع الله سبحانه وتعالى. والمخلصون يدعون الله رغباً ورهباً.

وثانيا إنّ الوليّ يصير محبوبا من الله لا لأنّه يحبّ الله ابتداءً ؛ إذ المحبّة والعداوة شيئان لا يعلمهما إلاّ الله. والطاعات محدثة والمحدث لا يصير غالباً للقديم ، فقد يكون الإنسان في الطاعة ولكن نصيبه من الأزل العداوة ، لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث عبد الله : « والله إنّ أحدكم ، أو الرجل يعمل بعمل أهل النّار حتّى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها »[3]. ومحبة الله صفة من صفاته ، وصفة الله غير معلّلة ومن كانت محبّته لا تعتمد على سبب فإنّ العبد لا يصير عدوّاً بسبب المعصية ومن كانت عداوته لا لعلّة لا يكون محبّاً لعلّة طاعة. وكون الإنسان ولياً ومن أهل الثواب يتوقف على الخاتمة إذ قال الله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾[4] ، فاستحقاق الثواب مستفادة من الخاتمة

[1] – سورة يونس ، الآية 62-63.

[2] – سورة الأعراف ، الآية 99.

[3] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج5 ، ص 2063.

[4] – سورة الأنعام ، الآية 160.

وليس من أوّل العمل. فالولاية واستحقاق الثواب هو بالخاتمة وليست معلومة لأحد. فتبيّن أنّ الوليّ لا يعلم كونه وليّاً[1].

والقائلون بأنّ الوليّ قد يعرف كونه وليّاً احتجّوا بأنّ الولاية لها ركنان : أن يكون الإنسان منقادا في الظاهر للشريعة مستغرقاً في الباطن في نور الحقيقة فإذا حصل الأمران عرف أنّه وليّ.

[1] - يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 27.

المبحث الثالث

الكرامة بين القبول والرفض

I- موقف أهل السّنة وضوابطه :

إنّ النّاس في معاملاتـــهم للأولياء يختلفون. فمنهم من لا يوليهم أهمّية ولا يعتقد فيهم. ومنهم من يغالي في الاعتقاد فيهم إلى حدّ وضعهم في منـــزلة تفوق طبيعتهم البشرية. ومنهم من يتوسّط الموقفيْن فيحبّهم ويواليهم ولكنّه لا يغالي في ذلك ولا يدّعي عصمتهم.

والأولياء هم أنفسهم يتبرّؤون من أن يدّعوا لأنفسهم حقّاً من حقوق الله الخاصة أو حقوق أنبيائه. فأهل الحقّ يقومون بعبوديّتهم لله وإخلاص الدين له. ويقومون بحقّ رسله وأوليائه على اختلاف منازلهم ومراتبهم.

فأمّا مذهب أهل السّنة فهو التّصديق الجازم بكرامات الأولياء وأنّها حقّ. قال الإسفرائيني[1] :

وَكُلُّ خَارِقٍ أَتَى عَنْ صَـــالِحٍ مِنْ تَابِعٍ لِشَرْعِنَـــا وَ نَاصِـــحِ
فَإِنَّهَـــا مِنَ الكَرَامَـــاتِ الَّتِي بِها نَقُـــولُ فَـــاقْفُ للأَدِلَّـــةِ
وَمَنْ نَفَاهَا مِنْ ذَوِي الضَّلاَلِ فَقَدْ أَتَى مِنْ ذَلِكَ بِالـــمُحَالِ
لأَنَّـــهَا شَهِـــيرَةٌ وَلَمْ تَـــزَلْ فِي كُلِّ عَصْرٍ يَاشَقَا أَهْلَ الزَّلَلِ

[1] – كتاب التوحيد : محمد بن عبد الوهاب ، الرياض ، ط5 ، 1984 ، ص 37.

والله سبحانه بعلمه السرّ وأخفى وباطلاعه على كلّ هواجس الضمير وحركات الخواطر وخفيات السّرائر ، فإنّه يخصّ أولياءه بآيات يظهرها عليهم وعلى أيديهم. وأهل السّنة في اعتقادهم أنّهم متّبعون في ذلك ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ويعتمدون على الكتاب والسنّة والإجماع ، وهو ما اتفق عليه مجتهدو الأمّة[1] في عصر واحد على أمر ديني ، وهو ما كان عليه السّلف الصالح. والاعتقاد هو التصديق مطلقاً. وفي الدّين هو ما عقد عليه الضّمير والقلب. وهو الاعتقاد بأنّ الله هو المتفرّد بكلّ صفات الكمال وهو الخالق والرازق ، المدبّر والمربي جميع الخلق بالنّعَم وربّى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة.

والإيمان هو أصل التوحيد وهو قول القلب واللّسان وعمل القلب واللّسان والجوارح. فأمّا قول القلب فالتّصديق والإيمان بأنّ الله له الألوهية على خلقه وهو المستحقّ للعبودية كلّها ، والإخلاص يكون له وحده. وهو منـــزّه عن مشابـــهة الخلق. وأهل السّنة يثبتون ما أثبت الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من صفات العظمة والكبرياء والمجد والجلال. وكل المخلوقات خاضعة لعزّه وهو المحمود وحدهُ الذي يُبْذل له غاية الذلّ والتعظيم. وهو الحقّ وما سواه الباطل ، إذ يقول في كتابه العزيز : ﴿ **وما قدروا الله حقّ قدره والأرض جميعاً قبضتُه يوم القيامة والسماوات مطويّات بيمينه** ﴾[2]. وقد ورد في حديث الرسول ﷺ أنّ الله يطوي السماوات يوم القيامة ثمّ يأخذهنّ بيده اليمنى ثمّ يقول أنا الملك ، أين الجبارون أين المتكبّرون ، ثمّ يطوي الأرضين السبع ثمّ يأخذهنّ بشماله ثمّ يقول : أنا الملك ، أين

[1] - عبد العزيز السلمان ، المرجع السابق ، ص 334.

[2] - سورة الزمر ، الآية 67.

الجبارون أين المتكبّرون[1]. ويوضّح بن عباس ﷺ ، هذا بقوله : « ما السماوات السبع والأرضون السبع في كفّ الرحمان إلاّ كخردلة في يد أحدكم »[2].

وأمّا عمل القلب فالنية والإخلاص والانقياد والإقبال على الله والإنابة والتوكّل عليه ومحبّته. فإخلاص المحبّة لله هى روح الإيمان وهي أصل الألوهية الذي هو حقّ الله لا يشاركه فيه أحد ، والمحبّة هي في الحقيقة العبادة. ومحبّة الله تسبق جميع المحاب الّتي تكون تبعاً لها. والمحبّة هي ميل النفس إلى الشيء الكامل أدركته فيه. قال الأزهري : « محبّة العبد لله ورسوله طاعته لأمرهما واتباعه لهما ، ومحبّة الله للعبد ما يليق بجلاله ، وأثرها رحمتُهُ وإحسانه وإعطاؤه »[3]. والمحبّة هي كذلك الخوف والتعظيم والإجلال والإيثار على مراد النفس. وعن ابن عباس ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال : « من أحبّ في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنّما تناول ولاية الله بذلك. ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتّى يكون كذلك »[4].

والتوكّل حقيقته أن يعلم العبد أنّ الأمر كلّه لله وأنّه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ولا يجري في الملك والملكوت أمر إلاّ بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته. والله يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصّمّاء في الليلة الظلماء ، ويُدرك حركة الذر في جوّ الهواء ويعلم السرّ وأخفى. يعتمد عليه العبد في جلب مصالح دينه ودنياه ويثق فيه غاية الوثوق لدفع المضار ، ومع ذلك يبذل جهده في باب الأسباب النافعة. وإيمان العبد يرقى بحسب توكّله على الله.

[1] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 2043.

[2] – عبد العزيز السلمان ، المرجع السابق ، ص 335.

[3] – المرجع نفسه ، ص 168.

[4] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

وأمّا قول اللّسان فالنطق بالشهادة ، وعمله قراءة القرآن وإيراده الأذكار. والإيمان كما قال ابن القيم له ظاهر وباطن. فظاهره فعل اللّسان وعمل الجوارح ، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبّته. فلا ينفع ظاهر لا باطن له ، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلاّ إذا تعذّر بعجز أو إكراه أو خوف هلاك[1].

وسئل بعض العلماء الكبار عن كرامات الأولياء فقال : « ومن ينكر هذا ، وإن كنتَ لم تعرف من هذا الشيء و لم تعقله ، فارجع إلى أنّ الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد »[2].

إنّ خرق العادة من جملة الممكن وقدرة الله متعلّقة بسائر الممكنات تعلّقاً صلوحياً قديماً وتنجيزياً حادثاً ولعدم المانع منه شرعاً وعقلاً كما يرى فقهاء الأمّة.

وإذا كانت الخوارق الجارية على يد الأولياء من عالم القدرة الجائز في حقّها كلّ ممكن ، فلا يبعد ما يذكر من أنواعها وأصنافها. فعالم الحكمة منطوٍ في بساط القدرة. فمن بساط الحكمة قطعه عليه الصلاة والسلام أسفار على ما جرت عليه العادة واقتضت الألوهية، وشوهد ذلك في هجرته وعمرته وغزواته ، وبمقتضى الحكمة اتخاذ الزاد والأهبة والسّلاح. ومن بساط القدرة طيّه عليه الصلاة والسلام مسافات الأرض والسماوات السبع وما فوق ذلك ذهاباً وإياباً في بعض ليلة[3].

[1] – عبد العزيز السلمان ، المرجع السابق ، ص 285.

[2] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 42.

[3] – أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 159.

ومن الفقهاء من ينكر وجود الكرامات. ويقرّر النّسَفي أنّ نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عند أهل السّنة ، من قطع المسافة البعيدة في المدّة القليلة من الزمان. وقد رتّب على ذلك الفقهاء الحنيفية والشافعية كثيراً من المسائل الشرعية[1].

وجوّز بعضهم وقوع الكرامات مثل إجابة دعوة أو تسهيل قطع مسافة أو طيّ مكان أو بسط زمان حتّى يسع القليل منه الكثير ممّا يحصل فيه ، أو تسهيل تخليص من عدو. يقول القشيري في رسالته : « واعلم أنّ ما أجراه الله تعالى على أيدي أوليائه في الدنيا من الكرامات وخوارق العادات فبحر لا يقدر عليه متعاطيه ، وعدد يشقّ حصره على من يعانيه. فإنّ القدرة الإلهية صالحة لإيجاد سائر الممكنات ، وما يقوّي به الله قلوب أوليائه مختلف الأنواع والصفات. فما من نوع أجراه الحق من خوارق العادات فيما تقدّم من الزمان إلاّ وإعادته أو مثله أو خلافه جائز في سائر الأوقات. فحيث كان هذا من قسم الإمكان ونقل وقوعه العدول فرادّه من باب الخذلان ، إذ لو استحال خرق العادة لتعذّرت المعجزات وما يسبقها من الإرهاصات »[2].

ومن الأئمة الكبار من أهل السنّة الذين يعتمدون جواز وقوع خوارق العادات في معرض الكرامات لأولياء الله تعالى يذكر اليافعي : إمام الحرمين ، وأبي بكر الباقلاني ، وأبي بكر بن فَوْرك ، والإمام الغزالي ، وفخر الدين الرازي ، وناصر الدين البيضاوي ، ومحمد بن عبد الملك السّلمي ، وناصر الدين الطوسي ، وحافظ الدين النسفي ، وأبي القاسم القشيري، فيقول : « فهؤلاء عشرة أئمة ممّن له تصنيف محقّق وكلام معتبر في العقائد. وقد اتّفقوا أنّ الفارق في الكرامة هو تحدّي النبوّة فقط. ولم يشترط أحد منهم كون الكرامة مغايرة للمعجزة في جنسها وعظمها »[3].

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 29.

[2] – أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 159.

[3] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 30.

ويقرّ الفقهاء كذلك بوجود الأبدال وهم الأولياء والعبّاد ، وسمّوا بذلك لأنّهم كلّما مات واحد أبدل بآخر. ويرى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنّ لله أبدالاً في الأرض وقد سئل من هم ؟ فقال : « إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أعرف لله أبدالاً »[1].

ضوابط أهل السّنة للكرامة :

جعل أهل السّنة لمسألة الولاية ضوابط ، إذ أنّهم يعتبرون أنّ البدعة سبب للكفر وأنّها أحبّ إلى إبليس من المعصية ، لأنّ المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها. ومن هذه البدع الغلو في الصالحين ؛ وهو مجاوزة الحدّ بأن يجعل للصالحين والأولياء من حقوق الله الخاصة به شيء لهم.

وحقّ الله الذي لا يشاركه فيه مشارك هو الكمال المطلق والغنى والتصرّف المطلق من جميع الوجوه. وأنّه لا يستحقّ العبادة والألوهية غيره. وطاعة رسله ومحبّتهم وتوقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة فإنّما هي تَبَعٌ لحقّ الله تعالى. ومن غلا في أحد من المخلوقين حتّى جعل له نصيباً من هذه الحقوق ، فقد ساوى به الله وذلك أعظم الشرك.

ومن ذلك ، الغلو في قبور الأولياء والصّالحين وجعلها أوثاناً تعبد من دون الله ، وما يُفعل عند قبورهم من شدّ للرحال ، والتمسح بها والتوسّل إلى الله بأهلها والصلاة عندها وإسراجها والبكاء عليها. وقد يبلغ الغلو فيها نية العبادة. فقد تستغاث ويطلب منها الحوائج الدنيوية والأخروية وهو نفس ما يفعله عبدة الأصنام مع أصنامهم. ولا فرق في أن يكونوا مستقلين أو متوسطين في تحصيل هذه المطالب ، وقد كان يقول المشركون كما بيّن الله تعالى بقوله : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى ﴾[2].

---

[1] – كتاب التوحيد : محمد بن عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص 40.

[2] – سورة الزمر ، الآية 3.

وقد ورد عن ابن عباس ﷺ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وُدّاً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾[1]. يقول هي أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلمّا هلكوا أتى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم الّتي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسمّوها بأسمائهم. ففعلوا ، و لم تعبد حتّى إذا هلك أولئك ونُسيَ العلم ، عُبدت[2].

وورد عن الرسول ﷺ أنّه نهى بعض المسلمين على أن يُطروه كما أطرت النّصارى عيسى بن مريم وكان يقول إنّما أنا عبد الله ورسوله.

كما تكون حماية التوحيد بالتأدّب والتحفّظ في الأقوال كذلك. فكلّ قول يفضي إلى الغلوّ الذي يخشى منه الوقوع في الشرك ينبغي تركه. وأهل السنّة بهذا التصوّر يعتبرون أنّهم هم الفرقة الناجية الّتي ذكرها النبيّ ﷺ أنّها لا تزال طائفة من هذه الأمّة ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتّى تقوم الساعة.

II- موقف الصوفية من الكرامة :

أمّا الصوفية فقد أكّدوا وجود الكرامات بما ورد في القرآن الكريم لما جرى لأصحاب الكهف لقوله تعالى : ﴿ فأوُوا إلى الكهف ينشر لكم ربّكم من رحمته ويهيّئ لكم من أمركم مرفقاً وترى الشمس إذا طلعت تزّاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿ ولبثوا في كهفهم

[1] - سورة نوح ، الآية 23.

[2] - تفسير القرآن العظيم : الإمام إسماعيل بن كثير ، دار المعرفة ، بيروت ، 1982 ، ص 426.

[3] - سورة الكهف ، الآية 16-17.

ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾[1] ، واعتمد عليها كثير من المفسّرين في إثبات وقوع الكرامات ومنهم الفخر الرازي.

وأجمع الصوفية على إمكان ظهور خوارق العادات على يد إنسان من غير أن يدّعي شيئاً من النبوّة إذا كان صالحاً ومرضياً عند الله. واعتمدوا في ذلك زيادة على ما ورد في القرآن الكريم من الآيات على طائفة من الأخبار النبوية. من ذلك خبر الثلاثة الذين تكلّموا في المهد وخبر الذين دخلوا الغار فصُدّ عليهم. واحتجّوا كذلك ببعض الدلائل العقلية. فإذا بلغ الإنسان المؤمن في طاعة الله ، إلى حيث يطيعه في كل أوامره وينتهي عمّا نهاه عنه ، يكرمه الله بكلّ ما يريده. وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾[2] ، وفي هذا يقول القشيري : « أمّا الصوفية فقد جعلهم صفوة أوليائه وفضّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصّهم من بين الأمّة بطوالع أنواره. صفّاهم الله من الكدورات البشرية ووفّقهم للقيام بآداب العبودية ، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف ، فرجعوا إليه بالصدق والإفتقار »[3].

وقد يصل إيذاء الوليّ مقام إيذاء الله ، لقوله تعالى في الحديث القدسي : « من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب »[4]. ولم يرد هذا الإنذار الشديد وهو إعلام الله ، المؤذي لوليّه ، بأنّه محارب له إلاّ في حقّ المعادي للوليّ أو آكل الرّبا. وإذا لم يبق في سمع الوليّ وبصره

[1] – سورة الكهف ، الآية 25.

[2] – سورة البقرة ، الآية 40.

[3] – أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 161.

[4] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج 4 ، ص 2039.

وسائر أعضائه نصيب لغير الله، فمقام المعرفة والمحبة والذكر والشكر الّتي أوتيها الوليّ أشرف من تسخير الحيّة والسّبع وإعطاء عنقود العنب أو شربة ماء في مفازة ، فهذا أولى[1].

يقول ابن عربي : « إنّ خرق العادة في الأولياء لا يكون إلاّ لمن خرق العادة في نفسه بإخراجها من حكم ما تعطيه طبيعتها وهو تصرّفها في المباح ، وما يلقي إليها الشيطان بالتزيين من إتيان المحظور أو ترك الواجب. فمن خرق في نفسه هذه العادة خرق الله له عادة في الكون ». وقد روى في هذا الصدد الأبيات التالية :

خَرْقُ العَوَائد أَقْسَـامٌ مُقَسَّمَـةٌ ... أَتَى بِـهَا النَّظَرُ الفِكْرِيُّ مَحْصُورَة
مِنْهَا مُعِينَـةٌ بِالحَـقِّ قَـائِمَـةٌ ... كَالمُعْجِزَات عَلَى الإرسال مَقْصُورَة
ومَا سِوَاهَا مِنْ الأَقْسَام مُحْتَمَـلٌ ... وَلَيْسَ للعِلْمِ فِي تَعْيِيـنِـه صُـورَةٌ
وكُلُّها فِي كِتَـابُ الله بَيِّـنَةٌ ... فَقِفْ عَلَيْه تَجِدْهَا فِيـه مَسْـطُورَة
بُشْرَى أَوْ سِحْرٌ وَمَكْرٌ أَو عَلاَمَتُهُ ... وَكُلُّهَـا فِي كِتَـاب الله مَذْكُورَة
فَهَذِه خَمْسَةٌ أَقْسَـامُهَا انْحَصَرَتْ ... لِلنَّـاظِرِينَ فِي الأَكْوَان مَشْهُـورَة[2]

وخرق العادة يختصّ بها الله تعالى ، وليس للإنسان في ذلك حول ولا قوّة ، يظهرها على الوليّ أو تظهر عنه بأمر الله سبحانه وهي على مراتب : فنجد المعجزة والآية ، والكرامة والمؤيّدة ، والمنبّهة والباعثة والجزاء ، والمكر والاستدراج.

وكلّ هذه الأصناف أمرها محتمل هل معها العناية والمحبة الإلهية أم لا ، إلاّ المعجزة والآية والمؤيّدة فهي محفوظة العاقبة من الله تعالى ، وصاحبها مأمون. وصنف آخر يصدر من قوى النفس " إذ أنّ أجرام العالم تنفعل للهمم النفسية " ، وقد تكون عن حيل طبيعية ونَظْمِ حروف بطوالع. وقد تكون بأسماء يتلفّظ بها ذاكرها فيظهر عنها الفعل الخارق للعادة في نظر

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 35.
[2] – المرجع نفسه ، ص 32.

عين الرائي وليس في نفس الفعل. وهذه الأفعال جعلها الله تحت قدرة المخلوق بإرادته وهي من عالم السحر[1].

والكرامة عند ابن عربي ، وهي من اسم الله تعالى البَرُّ لا يعطيها إلاّ للأبرار من عباده. ويقرّر أنّ المناسبة تطلبها وإن لم تكن بطلب من ظهرت عليه. فليس في الوجود شيء إلاّ لحكمة. والوجود كلّه ما ينضاف فيه شيء إلى شيء إلاّ لمناسبة بينهما ظاهرة أو خفية. ومعرفة هذا التناسب من مقامات الخواص من الأولياء وهي غامضة وموجودة في كلّ شيء حتّى بين الاسم والمسمّى.

ويرى ابن عربي من جهة أخرى أنّ النفس إذا تطهّرت تسمو إلى العالم الروحاني الذي صدرت عنه فتكتسب بفضل الله المواهب المنتمية لأصلها الملائكي كالاحتجاب واللّطف والقوّة الخارقة والإشراق. ممّا يجعلها قادرة على تحقيق الكرامات. يقول : « وأمّا أصحابنا يعني الصوفية ، فلم يكن لهم نفيها لمشاهدتهم إيّاها في أنفسهم وفي إخوانهم ؛ إذ هم أصحاب كشف وذوق. ولو ذكرنا ما شاهدنا منها وما بلغنا عن الثقات منها لبهت السامع ، وربّما رمى بها وذلك لقصوره بنظره لنفس من أظهرها الله تعالى على يديه وشخصه واحتقاره له. فلو تكمّل بأن نظر للفاعل القادر المختار سبحانه الذي أجراها على يديه ، لم يكن ذلك عنده بكثير »[2].

كما يقرّر أيضاً أنّ النفس الإنسانية من نفس الروح الملائكية ، والبدن الغليظ يحرم النفس من هذه المواهب. وإنّما يحرّرها التزام الزهد. والمتولّي للفعل هي الروح وليس البدن. فكلّ من كان أكثر علماً بأحوال علم الغيب ، كان أقوى قلباً وأقلّ ضعفاً فتخفّ روحه وتصير تشبه جواهر الأرواح الملكية ، فيحصل له من القدرة ما لم يقدر عليه غيره ، ويصبح يرى القريب والبعيد ، ويقدر على التصرّف في الصعب والسّهل بسبب النّور الإلهي الساري

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 33.

[2] – المرجع نفسه ، ص 33.

في أعضائه. وإذا استأنست الأرواح بمعرفة الله ومحبّته وقلّ انغماسها في تدبير البدن ، أشرقت عليها الأرواح السماويّة ، فقويت على التصرّف في أجسام هذا العالم مثل قوّة الأرواح الفلكية على هذه الأعمال ، وذلك هو الكرامات[1].

وإذا تطهّرت النفس بالزهد أو بأنواع الرياضات الروحية الّتي تزيل عنها غبرة الكون والفساد ، أشرقت وقويَتْ على التصرّف في عالم الكون. والكرامات هي نتائج الطّاعات ، ولا بدّ أن يكون بينها وبين الأعضاء المطيعة الّتي تصدر عنها مناسبات. والأعضاء هي العين والأذن واللّسان واليد والبطن والفرج والرِّجل والقلب. وكلّ واحد منها له تكليف يخصّه من أنواع الأحكام الشرعية. فإذا قام بها المكلّف تصدر تلك الكرامات عنها.

ويعتبر أبو حامد الغزالي من جهته ، أنّ النفس ذات تأثير في البدن. فليس يبعد أن يكون من النفوس من يتعدّى تأثيرها إلى الكون فتؤثّر فيه، وتستسخره كلّما أرادت، يقول : « ولا ننكر أن يكون من القوى النفسية ما هو أقوى فعلاً وتأثيراً من أنفسنا نحن ، حتّى لا يقتصر فعلها على المادة الّتي رسم لها وهو بدنـــها ، بل إذا شاءت أحدثت في مادة العالم ما تتصوّره في نفسها ». ويقول أيضاً : « واعلم أنّ هذه الأشياء ليس القول بها والشهادة لها هي ظنون وأمور عقلية فقط ، وإن كان ذلك أمر معتمد ، ولكنّها تجارب لما ثبت طلب أسبابـــها. ومن حسن الاتفاق لمـــحبّي الاستبصار أن يعرض لهم هذه الأحوال في أنفسهم، أو يشاهدوها مراراً متوالية في غيرهم حتّى يصير ذلك ذوقا في إثبات أمور عجيبة لها وجود وصحة ، وداعياً لهم إلى طلب سببها. فإنّه إذا اقترن الذوق بالعلم كان ذلك من أعظم الفوائد »[2]. ويؤكّد الإمام الغزالي على وجوب اقتران الحقيقة بالشريعة علماً وعملاً.

[1] – أثين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 197.

[2] – الحقيقة في نظر الغزالي : د. سليمان دنيا ، دار المعارف ، مصر ، 1965 ، ص 373.

ويرى بلاثيوس[1] أنّ كلا من علم الكلام الإسلامي والمسيحي يقرّان بوجود الكرامات. فكلّ ظاهرة مضادة للطبيعة أو فوقها ؛ أي الّتي تخرق القوانين الطبيعية أو العادة ، فمحدثها هو الله الذي وضع هذه القوانين الطبيعية. ولكنّها تظهر بتوسّط إنسان يختاره الله أداة لذلك. وتسمّى هذه الظاهرة الخارقة كرامة إذا كان الإنسان الذي تظهر على يديه لا يقدّمها كشاهد على رسالته. ويجعل بلاثيوس صلة وثيقة جدّاً من الناحية المعنوية بين الكرامة والكلمة اليونانية اللاتينية (Charisma) الّتي أدخلها القدّيس بولس للدلالة على المواهب والأفضال الاستثنائية وفوق المعتادة الّتي يشرّف بها الله النفوس المختارة.

ويقرّر أنّ من جملة التوافقات بين الصوفية المسلمين والرهبان المسيحيين ، تلك المواهب الخارقة الّتي يسمّيها اللاهوتيون النّصارى باسم صناعات اللّطف (Facientes Gratiam) الّتي تحدث في نفوس من بلغوا قمّة الكمال ، مثل حالة التوافق المقدّس مع الإرادة الإلهية في جميع الأحوال والأحداث. ومثل ظواهر الإيحاء الذاتي الّتي هي ملكة ترجع إلى ما يسمّيها الإسكلائيون[2] (Aprehensiva أو Eximativa).

ويعتبر بلاثيوس أنّ بعض المواهب ؛ أي بعض القوى والطاقات النفسية للإنسان الّتي تُحدث داخل وخارج الشخص آثاراً فيزيائية خارقة للطبيعة مثل سحر النظر ، والتأثير للفزع الشديد ، وللصوت الإنساني والموسيقى الآلية. وكل هذه الأشياء تُحدث انفعالات وأحوالاً للنفس تثير العجب لغرابتها. يستخدم الله هذه الملكات النفسية المشتركة بين النبيّ والوليّ والرجل العادي ، وسائل لتحقيق المعجزة.

ويوجد تناظر بين الكرامة والفضيلة. فتكون الكرامة مكافأة لوجود الانقطاع للمجرى العادي لسوء السلوك الإنساني بالفضيلة الّتي هي مجموع من الأفعال الحسنة. فيهب الله العبد الصالح الفاضل المعجزة وهي خرق للمجرى العادي للقوانين الطبيعية. ويستنتج

[1] – أثين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 193.

[2] – المرجع نفسه ، ص 196.

بلاثيوس أنّ المعجزة والكرامة تتّفقان في طريقة إحداثهما. ذلك أنّ في النفس الإنسانية توجد موهبة أو ملكة يسمّيها الصوفية باسم " الهمّة أو الصدق ". وهذه الملكة تحدث في النّاس العاديين وفي الحياة الجارية ، ظواهر لا ترى أحداثها مضادة للطبيعة. وحسب بلاثيوس أنّ كلاً من ابن عربي والقدّيس يوحنا الصّليبـــي والقديسة تيريزا الأبلية متّفقون على أنّ الكرامات هي امتحان أوّلي ينظر بها الله هل تطهّرت النفس من كلّ تعلّق بالمحسوسات ، أو أنّها ترتبط بها وتجد فيها السلوى وتقف عندها[1]. ويستغرب كيف أنّ ابن عربي في سرده للكرامات وتصنيفها واهتمامه البالغ في ذكر أمثلة حيّة عنها ، وإيمانه المتواصـــل الذي يدعوه إلى أن يضيف إلى كلّ مقام كرامات خارجية وباطنية يتّفق تماماً مع مذهب أصحـــاب التجلّي (Alumbrado) في إسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي. وهؤلاء كانوا « ينشدون في نـــهم لا يشبع ما هو خارق ، تسوقهم رغبة عنيفة في الغرور الروحي والتظاهر أمام النّاس ! »[2]. ويعتبر الكاتب أنّ في كتابات ابن عربي تصوير لمسرحية روحانية حية ، فيها مجموعات مختلفة من الصوفية في عرض للتجليات والكرامات. وهنا تساؤل يطرح في طبيعة أعمال ابن عربي وخصوصية عبقريته وامتيازه...

III- نبوّة النّســـاء وولايتهنّ :

اعتبر الدارسون أنّه لا يوجد خلاف في جواز الولاية وما يتبعها من الكرامات والعرفان للنساء. يقول ابن حزم : « هذا فضل لا نعلمه حَدَثَ النّـــزاع فيه إلاّ عندنا في قرطبة ، وفي زماننا. فطائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوة للنساء جملة وبدّعت من قال ذلك. وذهبت طائفة إلى القول بأنّه قد كانت في النساء نبوّة. وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك. فتبيّن أنّ المسلمين لم يتنازعوا في جواز النبوّة ، والولاية في النساء ، ولا مانع من ذلك شرعا وعقلا. واتفقوا على عدم وقوع الرسالة للنساء ، كما اتفقوا على وقوع الولاية لهنّ. وهذا

[1] – أنين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 195.

[2] – المرجع نفسه ، ص 208.

دليل أنّ مجال الوحي والإلهام يستوي النساء فيه والرجال ، فلا عائق يعيق المرأة عن أن تسمو بروحها إلى أقصى غايات السموّ المقدورة للبشر ، وأن تصل إلى مرتبة العرفان والولاية وتشهد من جلال حضرة الربوبية ما لا يشهده سائر البشر »[1]. وقد بلغت نساءٌ هذه الدرجة الرفيعة في عصور النهضة والرقيّ في نشأة التصوّف الإسلامي. وترجم الشعراني في كتاب الطبقات لأربعمائة وست وثلاثين من الصوفية بينهنّ ستّ عشرة امرأة كلّهنّ من الطراز الأوّل بين أهل هذه الطائفة من أمثال رابعة العدوية ، والسيدة عائشة بنت جعفر الصادق. والسيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد. فلا أحد يزعم أنّ في الإسلام نزوحا إلى البعض من الجانب الروحي للمرأة من استعدادها للمراتب العليا الّتي تكشف بها حجب الغيوب ويفيض عليها من الكرامات. كانت عبده بنت أبي شوال تخدم رابعة العدوية وفيما ترويه عنها أنّها كانت تصلّي الليل كلّه ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر. قالت : فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك ، وهي فزعة : يا نفس كم تنامين ؟ وإلى كم تنامين ؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلاّ لصرخة يوم النشور. وكان هذا حالها حتى ماتت[2].

وقال ابن عطاء الله السكندري : « كانت عندنا بالإسكندرية امرأة عارفة بالله أخبرتني أنّها كانت تمشي في الإسكندرية وإذا بناس في لهوهم وطربـــهم. قالت ، فقلت في نفسي : هؤلاء في فرح ومسرّة ونحن في مقاساة النوازل وقهر الأحكام. فإذا يقال لي : ليس الحضرة والأدب كأهل الطيبة والطرب. وقالت : إذا كنت في حضرة أو موقف وأرادني زوجي ليقضي إربه لا أمنعه ، ولا يستطيع ذلك. كلّما أراد منّي أمرا عجز عنه. قالت حتى يضيق خُلُقَه ، فيقول : ما هذه إلاّ حسرة ، هذه الشابة في حسنها بين يدي لا تمنع عني ولا

[1] – التصوّف : ماسنيون ومصطفى عبد الرزاق ، دار الكتاب اللبناني ، ط1 ، 1984 ، ص 112.

[2] – المرجع نفسه ، ص 121.

أصل إليها فتقول له في ذلك الوقت من هو الرجل فينا ومن هي المرأة ، قالت إذا كان وقت ستر أمكنه ما يريد[1].

فإذا كان الصوفية هم بناة المثل الأخلاقي الإسلامي الأعلى ، فللمرأة حظ في تشييد ذلك الهيكل العظيم. وإنّا نجد في كتب التصوّف والأخلاق ، ذكر لبعض النساء سيرهنّ شاهد ومثل يقتدى. قال الجاحظ :« والناسكات المتزهدات من النساء المذكورات في الزهد والرياسة من نساء الجماعة : أم الدرداء ومعاذة العدوية ، ورابعة القيسية. ومن نساء الخوارج الشفّا وحمّادة الصوفية وغزالة الشيبانية. قتلن جميعا وصلبت الشفّا وحمّادة وقتل خالد بن عتاب غزالة[2].

IV- موقف القدرية والمعتزلة من الكرامة :

أنكر أصحاب مذهب القدرية كرامات الأولياء قائلين أنّ ظهور الكرامات للأولياء يقدح في دلالة المعجزة على النبوة ، إذ أنّ الله تعالى جعل ظهور الخارق دليلاً على النبوّة فلو حصلت لغير نبيّ بطلت هذه الدّلالة لاختصاصها بالنبيّ.

وانطلاقاً من قوله تعالى في الحديث القدسي : « ولن يتقرّب إليّ المتقرّبون بمثل أداء ما افترضت عليهم » ، اعتبروا أنّ أداء الفـــرائض أعظم من التقرّب إليه بالنوافل والمتقرّب إلى الله بالفرائض لا يحصل له شيء من الكرامات ، فالمتقرّب إليه بأداء النوافـــل أولى أن لا يحصل له ذلك. كذلك فإنّ القول بانّ الوليّ ينتقل من بلد إلى بلد بعيد في وقت قريب يتنافى مع قوله تعالى : ﴿ وتحمل أثقالكـــم إلى بلد لم تكـــونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس ﴾[3]. والنبيّ ﷺ

[1] – لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه الشاذلي أبي الحسن: الشيخ تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1998 ، ص.

[2] – ماسنيون ومصطفى عبد الرزاق ، المرجع السابق ، ص 112.

[3] – سورة النحل ، الآية 7.

لم يصل إلى مكّة من المدينة إلاّ في أيّام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أنّ الوليّ ينتقل من بلده إلى الحجّ في يوم واحد ؟.

وإذا كان للوليّ دَيْنٌ على غيره وتظهر عليه الكرامات ، إذا طولب بالبيّنة كان عبثاً إذ أنّ ظهور الكرامة عليه دلالة على صدقه ، وإذا لم يطالب بها ترك قوله عليه الصلاة والسلام: « البينة على المدّعي » وهذا يدلّ على أنّ القول بالكرامة قول مردود. وإذا جاز ظهور الكرامة على بعض الأولياء جاز ظهورها على الباقين وإذا كثرت الكرامات حتّى خرقت العادة جرت وفق العادة وهذا يقدح في المعجزة والكرامة[1].

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 22.

الفصل الثاني

الكرامات أنواعها وحقيقتها

المبحث الأوّل : أنواع الكرامات.

المبحث الثاني : الكرامات عبر الأزمنة.

المبحث الثالث : رؤى نقدية للكرامات.

الفصل الثاني

الكرامات أنواعها وحقيقتها

المبحث الأوّل

أنواع الكرامات

إنّ البحث في تصنيف الكرامات يؤدي بالدّارس إلى إيجاد طرق عديدة تعتمد مضامين الكرامات في عملية التقسيم. ولعلّ أرجح طرق التقسيمات ما انتهجه ابن عربي الذي جعل الكرامات محورين اثنين :

أوّلهما : الكرامات الحسية (الخارجية).

والآخر : الكرامات الروحية (الباطنية).

I- الكرامات الحسية (الخارجية) :

إنّ العامّة لا تعرف إلاّ الكرامة الحسية مثل الكلام على الخاطر والإخبار بالمغيّبات الماضية والكائنة والآتية والأخذ عن الكون والمشي على الماء واختراق الهواء ، وطيّ الأرض والاحتجاب عن الأبصار وإجابة الدعاء في الحال إلى غير ذلك. وكلّ هذه الكرامات يمكن أن يدخلها المكر الخفيّ. وإذا كانت حقيقة فهي لا بدّ تكون نتيجة عن استقامة. وقد يجعلها الله تعالى حظ العمل وجزاء الفعل يحاسب العبد بها. وجعل الله نوعاً من المعيار ، معيار الانسجام بين الكرامة والفضيلة الّتي هي ثواب عنها. فكرامات البصر هي الثواب عن

الفضائل الّتي تتعلّق بحاسة البصر ، والمبدأ الأساسي للتصنيف يؤخذ من أعضاء الجسم الّتي هي آلات للفضائل المناظرة لها.

١ - كرامات البصر :

وهي مكافأة عن الفضائل الّتي آلتها البصر. وتنتسب إليها كلّ الظواهر الخارقة الخاصة بالبصر الفيزيائي والمشاهدة الروحية ، ومثالها البصر على مدى بعيد أو من خلال وسط معتم ورؤية حقائق العالم الروحي ، ورؤية ما في الفكر البعيد ، وفي داخل قلب الشخص القريب ، أو منقوشا على ثوبه أو على أي عضو من أعضائه والتوسّم في علامات الشخص وحركاته وأفعاله ومصيره الروحي في المستقبل. ومثال ذلك ، ما يروى من الحكايات :

- أنّ الشيخ أبا بكر اليعفوري حضر في بيت في قرية بين بساتين دمشق وجرى وقت طيب وفي أثنائه دخل فقير أعجمي وقال للشيخ : لم لا أدّبْتَ خادمك وقد وضع الإبريق غير مستقبل القبلة كعادة أصحاب الآداب. فنظر الشيخ أبو بكر إلى الإبريق فاستقبل القبلة وإلى الخادم فوقع ميتـــا [1].

- وما روي عن أبي عبد الله محمد بن أكميت المعروف بأبي جرية أنّه رأى النبيّ ﷺ في المنام يقول له : قم يا محمد في حوائج الخلق ولك الدفاء والكفـــاء والوفاء. فقال له : يا رسول الله إنّي أريد أن أشتغل بالعلم. فأعاد عليه النبيّ ﷺ ثانيا وثالثا وهو يقول كذلك. فقال له : ما لك أن تخالفنا. قال الفقيه فما قمت في حاجة إلاّ وأنا أنظرها مكتوبة في السماء وما سرت إلاّ والعَلَمُ من نور من الأرض إلى السماء تحمله القدرة قبلي حيث سرت [2].

---

[1] - يوسف بن إسماعيل النبهاني : جامع كرامات الأولياء ، المرجع السابق ، ص 187.

[2] - المرجع نفسه ، ص 232.

- وروي عن أحمد بن محمد أنّ رجلاً كانت منه نظرة لأجنبية فدخل على الشيخ فاستطرد الشيخ في الكلام ثم قال : ما بال أحدكم يدخل علينا وعينه تقطر من الزنى فاعترف صاحب الذنب[1].

٢- كرامات الأذن والسمع :

من كراماتها إثبات البشرى له من أنّه من أهل الهداية والعقل عن الله تعالى ، وسماعها نطق الجمادات. فإذا تحقّق به تطرأ عليه حالة لا يشاهد فيها شيئاً من الوجود إلاّ مسبّحا بلسان ناطق. وتحصل هذه الكرامات بأعمال التعبّد لله الّتي آلتها السّمع. ويقول بلاثيوس في هذا : « وإلى هذا تنسب كرامة الكلام النفسي الذي يؤكّد صوت الله للنفس أنّها تسير في طريق النجاة ، وإلى هذا تنتسب كرامة سمع لغة الكائنات غير الحية وهو في بعض الأحيان وهم من صنع الخيال ، خصوصاً إذا تألّف من كلمات دون أن يدرك ما هي. وفي أحيان أخرى يصل الصوفي إلى سمع صوت كلام الله نفسه »[2]. ومن مثال هذه الكرامات :

- ما رواه القشيري قال : سمعت منصور المغربي يقول : سمعت أحمد بن عطاء الروذباري يقول كان لي استقضاء في أمر الطهارة فضاق صدري ليلة لكثرة ما صببتُ من الماء و لم يسكن قلبي فقلت يا ربّ عفوك فسمعت هاتفاً يقول : العفو في العلم ، فزال عنّي ذلك[3].

- وحكي عن أبي سعيد الخراز قال : كنت في بعض أسفاري وكان يظهر لي في كلّ ثلاثة أيّام شيء فكنت آكله وأستقلّ به فمضى ثلاثة أيام وقتا من الأوقات و لم يظهر شيء

[1] - يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 541.

[2] - أثين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 199.

[3] - أبو القاسم القشيري : الرسالة القشيرية ، المرجع السابق ، ص 160.

فضعفتُ وجلست ، فهتف بي هاتف : أيّما أحبّ إليه سبب أو قوة فقلت القوّة. فقمت من وقتي ومشيتُ إثني عشر يوماً لم أذق شيئاً و لم أضعف[1].

- قال القشيري : سمعت محمد بن عبد الله الصوفي يقول : سمعت أبا بكر الدقاق يقول : كنتُ مارّاً في تيه بني إسرائيل فخطر ببالي أنّ علم الحقيقة مُباينٌ للشريعة ، فهتف بي هاتف من تحت الشجرة : كلّ حقيقة لا تتبعها شريعة فهي كفر[2].

- يروى أنّ محمد شمس الدين الحنفي كان في خلوته توتة مزروعة فقال الشيخ : فخطر لي أن أباسطها ، فقلت : يا توتة حدثيني حدوثة ، فقالت بصوت جوهري : نعم لمّا زرعوني سقوني ، فلمّا أورقت أثمرت ، فلمّا أثمرت أطعمت. قال الشيخ : فكان كلامها سلوكاً لي وقد حصل لي بحمد الله ما قالت التوتة[3].

٣- كرامات النطـــق :

وهي ثواب عن فضائل اللسان مثل مكالمته للعالم الأعلى ومحادثته لهم. ومن كراماته نطقه بالشيء قبل أن يكون ، والإخبار بالمغيّبات والكائنات قبل حصول أعيانـــها في الوجود. ويخبر بلاثيوس أنّ من كرامات اللسان : الكلام مباشرة مع الملائكة والتنبؤ بما سيقع من أحداث في المستقبل ، وعلاج المرضى وإحياء الموتى بفضل الكلام وحده[4]. ومنها :

- أنّ محمد بن أحمد القرشي قالت زوجته : خرجت من عنده وتركته وحده ، فسمعت عنده رجلاً يكلّمه فوقفت حتّى انقطع كلامه فدخلت فقلت من هذا ؟ قال : الخضر أتاني

[1] - أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 164.
[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
[3] - يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 251.
[4] - أثين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 199.

بزيتونة من أرض نجد ، وقال كلْ هذه ففيها شفاؤك. فقلت له : اذهب أنت وزيتونتك لا حاجة لي بها[1].

٤- كرامات اليد :

وهي ثواب عن الكرامـــات الّتي تؤديها اليد. مثل تحويل قبضة من الهواء إلى ذهب أو فضة. المشاهدة في حـــالة الوجد ليد الله وهي تكتب في اللوح المحفوظ الكـــائنات الحـــالية والمستقبلية [2] ، أو ترفع الحجب الّتي تحجب النفس حتّى تشاهد كلّ الأشياء في الله وكأنّها تشاهدها في مرآة. وهذه الكرامات الأخيرة ثمرة فضيلة التجرّد من كلّ شيء سوى الله. ومن ذلك :

- ما رواه القشيري قال : سألت أحمد السرخسي فقلت له : هل ظهر لك شيء من الكرامات ؟ فقال : في وقت إرادتي وابتداء أمري ربما كنت أقلب حجرا أستنجي به فلم أجد فتناولت شيئاً من الهواء فكان جوهراً فاستنجيت به ثم طرحته. وقال : وأيّ خطر للكرامات ، إنّما المقصود بها زيادة اليقين في التوحيد ، فمن لم يشهد غيره موحّداً في الكون فسواء أبصر فعلا معتاداً أو ناقضا للعادة[3].

- يروى عن الحسن البصري قال : كان بعبدان رجل أسود فقير يأوي إلى الخرابات ، فحملت معي شيئاً وطلبته. فلمّا وقعت عينه عليّ تبسّم وأشار بيده إلى الأرض فرأيت كلّها ذهباً تلمع ثمّ قال : هات ما معك فناولته وهالنـــي أمره وهربت[4].

---

[1] - يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 194.

[2] - أثين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 199.

[3] - أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 163.

[4] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

– قال القشيري : سمعت أبا عبد الرحمان السلمي يقول : سمعت أبا جعفر الحدادة أستاذ الجنيد قال : كنت بمكّة فطال شعري ولم يكن معي قطعة من حديد آخذ بها شعري ، فتقدّمت إلى مزيّن فتوسّمتُ فيه الخير وقلت : تأخذ شعري لله ، فقال : نعم وكرامة. وكان بين يديه رجل من أهل الدنيا فصرفه وأجلسني وحلّق شعري. ثمّ دفع إليّ قرطاساً فيه دراهم وقال : استعن بها على بعض حوائجك. فأخذتها واعتقدت أن أدفع إليه أوّل شيء يُفتح به عليّ. قال : فدخلت المسجد فاستقبلني بعض إخواني وقال لي : جاء بعض إخوانك بصرّة من البصرة من بعض إخوانك فيها ثلاثمائة دينار. قال : فأخذت الصرّة وحملتها إلى المزيّن وقلت : هذه ثلاثمائة دينار وتصرفها في بعض أمورك فقال : ألا تستحي يا شيخ تقول لي أحلق شعري لله ثم آخذ عليه شيئاً ، انصرف عافاك الله[1].

– حكى أبو عمر الأنماطي قال : كنت مع أستاذي في البادية فأخذنا المطر فدخلنا مسجداً نستكن فيه وكان السقف يكف. فصعدنا السطح ومعنا خشبة نريد إصلاح السقف فقصر الخشب عن الجدار. فقال أستاذي : مدّها فمددتها ، فركبت الحائط من ههنا وههنا[2].

– عن عمران الواسطي قال : انكسرت السفينة وبقيت أنا وامرأتي على لوح وقد ولدت في تلك الحالة. فصاحت بي وقالت لي : يقتلني العطش. فقلت : هو ذا يرى حالنا فرفعتُ رأسي فإذا رجل في الهواء جالس وفي يده سلسلة من ذهب وفيها كوز من ياقوت أحمر وقال : هاك اشرب. قال : فأخذت الكوز وشربنا منه وإذا هو أطيب من المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل. فقلت : من أنت رحمك الله ؟ فقال : عبد لمولاك. فقلت : بم وصلت إلى هذا ؟ فقال : تركت عواري لمرضاته فأجلسني في الهواء. ثمّ غاب عنّي ولم أره[3].

[1] – أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 163.

[2] – المرجع نفسه ، ص 164.

[3] – المرجع نفسه ، ص 165.

- يحكى عن ذي النون المصري قال : كنت وقتا في السفينة فسُرقت قطيفة فاتّهموا بها رجلا ، فقلت : دعوه حتّى أرفُقَ به وإذا الشاب نائم في عباءة فأخرج رأسه من العباءة. فقال له ذو النّون في ذلك المعنى. فقال : تقول ذلك ، أقسمت عليك يا ربّ أن لا تدع واحداً من الحيتان إلاّ جاء بجوهرة. قال : فرأينا وجه الماء حيتاناً في أفواههم الجواهر ثمّ ألقى الفتى نفسه في البحر ومرّ إلى الساحل[1].

- قال جعفر الأعور : كنت عند ذي النون المصري فتذاكرنا حديث طاعة الأشياء للأولياء فقال ذو النون : من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور في أربع زوايا البيت ثمّ يرجع إلى مكانه فيفعل. قال : فدار السرير في أربع زوايا البيت وعاد إلى مكانه وكان هناك شاب فأخذ يبكي حتّى مات في الوقت[2].

٥- كرامات المشي أو كرامات القدم :

ثلاثة منها خارجية وثلاثة داخلية : المشي على الماء ، اجتياز المسافات الطويلة في لحظة ، والمشي في الهواء. ويناظر الأولى ككرامة داخلية النفوذ في سرّ الحياة الحسيّة والعلمية، ويناظر الثانية كشف الماهيات والغايات المستترة لجميع أعضاء البدن الإنساني ، ويُناظر الثالثة عيان ماهية الملائكة وأعمالهم. ومن ذلك[3] :

- ما ورد في الرسالة أنّ رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي في غزاة فحال بينه وبين الموضع من البحر فدعا الله باسمه الأعظم ومشوا على الماء[4].

[1] - أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 165.

[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] - أثين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 200.

[4] - أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 160.

- روى القشيري أنّه كان لإبراهيم بن أدهم صاحب يقال له يحيى يتعبّد في غرفة ليس لها سلّم ولا درج ، فكان إذا أراد أن يجيء إلى باب الغرفة يقول " لا حول ولا قوّة إلاّ بالله "، ويمرّ في الهواء كأنّه طير ثمّ يتطهّر. فإذا فرغ يقول " لا حول ولا قوّة إلاّ بالله " ويعود إلى غرفته[1].

- حدّث الشيخ أبو مسعود الهرّاس قال : كنت أقرأ في صحن جامع القرويين بفاس والمؤذّنون بالليل فإذا أبو عبد الله بن عباد قد خرج من باب داره وجاء يطير في الصحن كأنه جالس متربّع حتّى دخل في البلاط الذي حول الصومعة ، ثمّ مشيتُ فوجدته يُصلّي خلف المحراب[2].

- روى بعض أصحاب الشيخ نقشبند محمد بهاء الدين قال : أرسلني الشيخ قدّس الله سرّه يوماً في حاجة. فلمّا رجعت رأيت المريدين وقوفا في البستان الذي فيه مرقده الشريف الآن وبأيديهم المعاول والمكاتل. فدخلني أشدّ الخوف ثمّ بعد ساعة جاء الشيخ من منـــزله ثمّ عاد لإصلاح طعام المريدين فلم يلبث أن رأيناه جاء من جهة منـــزله إلى جهتنا وهو يطير في الهواء ويثب من محلّ إلى محلّ كالطائر. فلمّا دنا منّا مرّ من فوق رؤوسنا. وقال الشيخ : مرتبة الطيران سهلة ، فإنّ الذباب ليطير في الهواء أيضا. وقال : هذه الأمور لا اعتبار لها عند خواص أهل الله تعالى[3].

- حكى الشيخ الإثميدي أنّ الشيخ محمد بن عنان أرسل إلى رجل يدعى أبو العباس الغمري في الممهلة بعد العشاء وقال : لا تخلّ الصبح يؤذّن إلاّ وأنت عندي. فمضى أبو شبل ورجع.

[1] - أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 165.

[2] - يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 253.

[3] - المرجع نفسه ، ص 247.

فقال له الشيخ : عديت من أيّ المعادي ؟ فقال : يا سيّدي ما درت بالي للبحر وما علمت به. فقال الشيخ سرّا لأصحابه : طوى البحر بـــهمّته وعزمه فلم يجده في طريقه[1].

– روى الشيخ الشعراني أنّ الشيخ حسن الخباز فقد الماء الذي يتوضّأ به في ليلة من الليالي فتوجّه إلى الله تعالى وإذا بشخص من أرباب الأحوال طائر في الهواء وفي عنقه قربة ماء ملأها من النيل فنـــزل عليه وصبّها له وصعد في الهواء ثمّ قال : يا ولدي من صدق الله سخّر له الوجود[2].

– قال الشيخ أحمد صالح الصوفي : كنت أنا والشيخ أبو عبد الله بن يوسف المكش في الصحراء فقلت : يا سيدي ، هل عند الأولياء حالة أخصّ من حالة الخطوة ؟ فقال نعم التحيّز. فقلت : وكيف التحيّز ؟ فقال هكذا ، وتحرّك من مجلسه فإذا نحن بأرض لا نعرفها. فقال لي : يا أحمد بيننا وبين الموضع الذي كنّا فيه مسيرة شهرين ، ثمّ تحرّك ثانياً فإذا نحن بموضعنا[3].

– قال عبد الواحد بن زيد لأبي عاصم البصري : كيف صنعت حين طلبك الحجّاج ؟ فقال: كنت في غرفتي فدقّوا عليّ الباب فدخلوا فدفعتُ بي دفعة فإذا أنا على أبي قبيس بمكّة. قال له عبد الواحد : من أين كنت تأكل ؟ قال تصعد إليّ عجوز كلّ يوم وقت إفطاري بالرغيفين الذيْن كنت آكلهما بالبصرة. قال عبد الواحد : تلك الدّنيا أمرها الله أن تخدم أبا عاصم[4].

وفي مجال الكرامات الخارجية يقول ابن عربي : إنّ طيّ الأرض يكون لأصحاب المجاهدات الخارقين سفينة جسومهم بالاجتهاد والكدّ في المعاملات. وذلك أنّ الله تعالى

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 291.

[2] – يوسف بن إسماعيل النبهاني : جامع كرامات الأولياء ، الجزء الثاني ، ص 38.

[3] – المرجع نفسه ، ص 254.

[4] – يوسف بن إسماعيل النبهاني : جامع كرامات الأولياء ، الجزء الأوّل ، ص 64.

الحكيم العليم الخبير أودع الحكم في المناسبة فلا يحصل مقام إلاّ أن يكون بينه وبين الصفة مناسبة ، كالعين مثلاً إذا وقفت عند ما حدّ لها سبحانه ، واتّصفت بما فرض عليها وندبت إليه وبادرت بذلك كلّه على أتمّ وجه فيورثها المشاهدة. فإن أعطيت بدل المشاهدة المناجاة تنعّمت النفس من جهة السمع لا من جهة البصر وبقي البصر غير متنعّم بشيء إذ حقيقته النظر ولا يعرف المناجاة ولا الكلام وما هو. والثواب عند العالم الحكيم مطابق للمثاب مجانس له ؛ لأنّه يضع الأشياء مواضعها. فلا يجعل المشاهدة ثواب السمع ولا المناجاة ثواب البصر ، فإنّ حقائقها تأبى ذلك ، وإن جوّزنا عقلاً أن يسمع البصر فليس هو إذ ذاك على التحقيق بصرا ، وإنّما هو سمع ، وإنّما هو بصر من حيث الرؤية والمشاهدة. فعلم المناسبة شريف لم يعلمه إلاّ الراسخون في العلم. فثبت بهذا كلّه أنّ طيّ الأرض للعبد في العالم الكبير إنّما هو نتيجة عن طيّ العبد أرض جسمه بالمجاهدات وأصناف العبادات وإقامته على الطّوى أي الجوع ، الليالي ذوات العدد. كما أنّ المشي على الماء لمن أطعم الطعام وكسى العراة إمّا من ماله ، أو بالسعي عليهم ، أو علّم جاهلاً ، أو أرشد طالباً ، لأنّ هاتين الصفتين سرّ الحياتين الحسية والعلمية ، وبينهما وبين الماء مناسبة بينة فمن أحكمهما فقد حصل الماء تحت حكمه ، إن شاء مشى عليه ، وإن شاء زهد فيه على حسب الوقت. كما أنّ الذي يمشي في الهواء لم يصحّ له حتّى يترك هواه ، فيكون إذ ذاك مرادا لا مريدا. ولهذا قيل لبعضهم وقد رؤي يمشي في الهواء : بم نلت هذه الكرامة ؟ فقال : تركت هواي لهواه فسخّر لي هواءه. فالعلم والحكمة إنّما هي في معرفة المناسبات قضاءاً عقليا وقضاءاً إلهيا حكميا. ومن قال بأنّ الله تعالى يفعل خلاف هذا فليس عنده معرفة بمواقع الحكم[1]. فالله تعالى يقول : ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 64.

[2] – سورة الأعراف ، الآية 51.

وكذلك اليوم تنسى ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون ﴾[2] ثمّ قال في الجزاء : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾[3].

٦- كرامة المأكل والملبس :

وهي أن يحفظ الله تعالى عليه طعامه وشرابه ولباسه بعلامة يلقيها له ، إمّا في نفسه أو في نفس الشيء الذي قامت به صفة الحرام أو الشبهة حتّى لا يتناول شيئاً إلاّ طيّباً. وربّما ينادى الواحد يقال له تورّع والآخر يأخذه الغثيان. ومن هذه الكرامات أن يشبع القليل من الطعام الرهط الكثير ، وأن ينقلب اللون الواحد الذي في الصحن أنواعا من الطعام في حاسة الأكل إن اشتهاه بعض الحاضرين. ومن كراماته أن يأتي لصاحب هذا المقام الجن أو الملك بغذائه من طعامه وشرابه ولباسه. وتحقيق هذا يكون لمن تحقّق في هذا المقام من الغذاء الحلال إمّا بالكسب أو بورع التوحيد. وكما قيل : العارف من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه. فإذا حصل الحلال فالتقليل منه ، فإذا تحقّق ذلك نشأ في باطنه همّة فعّالة قاضية يوجدها الله تعالى في نفس العبد كرامة له ، وعن تلك الهمّة يصدر جميع ما ذكر من الكرامات.

II- الكرامات الروحية أو الباطنية :

إنّ الكرامات الروحية أو المعنوية لا يعرفها إلاّ الخواص من الناس. وهي كما بيّنها الدارسون أن يحفظ عليه آداب الشريعة وأن يوفّق في إتيان مكارم الأخلاق واجتناب سيّئها. والمحافظة على أداء الواجبات مطلقا في أوقاتها ، والمسارعة إلى الخيرات وإزالة الغلّ للناس من صدره والحسد والحقد وسوء الظنّ. وطهارة القلب من كلّ صفة مذمومة ، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس ، ومراعاة حقوق الله في نفسه وفي الأشياء. وتفقد آثار ربّه في قلبه ، ومراعاة

[1] - سورة طه ، الآية 126.

[2] - سورة هود ، الآية 38.

[3] - سورة المطففين ، الآية 34.

أنفاسه في خروجها ودخولها فيتلقاها بالآداب إذا وردت عليه ، ويخرجها وعليه صفة الحضور. وهذه الكرامات لا يدخلها المكر ولا الاستدراج ، فكلّ ذلك دليل على الوفاء بالعهد وصحّة القصد والرضا بالقضاء. ولا تكون هذه الكرامات إلاّ لأهل الله المصطفين.

والكرامات المعنوية أو الروحية يصحبها العلم. فالحدود الشرعية لا يطالها المكر الإلهي فإنّها الطريق الواضحة لنيل السعادة. والعلم يعصم من العجب بالعمل ، ويطلب العمل ثمّ يجرّد صاحبه من رؤية نفسه ويُعْلِمُه أنّه تمّ بهداية الله وتوفيقه. فإذا ظهر عليه شيء من الكرامات الحسية رجع إلى الله وفرّ منها إليه وسأله ستره وأن لا يميّز عن العامّة بأمر يشار إليه ما عدا العلم لأنّ العلم هو المطلوب ، وبه تقع المنفعة ولو لم يعمل به. فالعلماء هم الآمنون من التلبيس ، والكرامة الحقيقية إنّما هي العلم النافع وهو العلم بالله والدار الآخرة وما تستحقه الدار الدنيا وما خلقت له ولأيّ شيء وضعت حتّى يكون الإنسان من أمره على بصيرة ، فلا يجهل من نفسه ولا من حركاته شيئاً ، وهي التعريف الإلهي بأنّ هذا الذي أتحف به عبده به كرامة منه لا ينقصه حظّاً من آخرته ولا هو جزاء لشيء من العمل. وإنّما لمجرّد قدوم العبد على الله ولم يكن له همّ إلاّ به فأتحفه بما أتحفه به وعرّفه أنّ ذلك جائزة القرب. يقول ابن عجيبة : « الكرامة المعنوية هي استقامة العبد مع ربّه في الظاهر والباطن وكشف الحجاب عن قلبه حتّى عرف مولاه ، والظفر بنفسه ومخالفة هواه ، وقوّة يقينه وسكونه ، وطمأنينته بالله. والكرامة الحقيقية هي الاستقامة على الدين وحصول كمال اليقين »[1].

ومن الكرامات المعنوية يورد ابن عربي :

[1] - إيقاظ الهمم في شرح الحكم : ابن عجيبة الحسني ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، 1982 ، ص 317.

أ - كرامات القلب :

القلب هو ينبوع الكرامات كلّها ، فمن القلب تتولّد النية الخالصة المستقيمة الّتي بدونها لا توجد فضيلة. وللقلب كرامات خاصّة به مثل امتثال الأوامر الإلهية ، الأنس بالله ، كذلك التنبؤ بالحوادث المقبلة ، مشاهدة الضمير الماضي والحاضر والمستقبل للناس ومشاهدة أسباب الحوادث الطبيعية ، السعيدة والأليمة ، مشاهدة علل الظواهر النفسية في الشخص ، وكرامة السماع عن الله ، وفحواها أن يتيقّن العبد أنّ الله هو الذي يخاطب النفس من خلال المخلوقات أيّا كانت الأوامر أو الرغبات أو الدعوات الّتي يعبّر عنها الناس بالقول ، وإن تناقضت مع ما يمليه عقله وهواه[1].

إنّ كلّ المقامات تقترن بها ، ككرامات باطنة ، درجات من المعرفة الخارقة بالأمور الروحية. وهذه المعرفة تتميّز عن المعرفة الطبيعية العلمية أو النظرية بطابع اليقين الثابتة والبينة الواضحة المباشرة مثل إبصار العيون أو شهادة إحدى الحواس. ويطلق على هذا النوع من العلم اسم " المعرفة " وتأتي من الله وليس باكتساب الإنسان. إنّها كرامة من الله يهبها فضلا منه بعنايته. تبلغ النفس هذه الكرامة الباطنة بمقدار ما ترتفع إلى مقامات أعلى في الفضل والكمال. إنّ المعرفة الصوفية تتخذ أسماء مختلفة بحسب الأشكال أو المراحل الّتي تتحقّق فيها النفس. ويذكر ابن عربي التقسيم الذي أتى به الصوفية وهي المكاشفة والتجلي والمشاهدة.

والمكاشفة فحواها أنّ النفس لا يمكن أن تدرك الجلال الإلهي ، لاحتجابها عنه بحجب المخلوقات. وكلّ مخلوق سواء كان ينتسب إلى العالم المادي أو العالم الروحاني هو بمثابة حجاب يحول بين الخالق والعبد ، بين الموجود السرمدي المطلق وبين الموجود الفاني النسبي. وهو كذلك يحول بين النفس وبين النفوذ إلى سرّ الحقائق الإلهية. وحين تقوم النفس بواسطة المجاهدات والرياضات بالتخلّي عن المخلوقات الّتي تحول بينها وبين الوصول إلى الله،

[1] - أثين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 200.

هنالك يؤدي تبديد هذه الحجب إلى الكشف عن الأسرار الروحية. والمكاشفة ترفع النفس إلى المعرفة الممكنة الوحيدة لإدراك المعاني الإلهية. ودرجات المكاشفة عند ابن عربي هي خمس [1]. فالكشف إمّا :

أ- عقلي وبه تنكشف به معاني المعقولات وتظهر أسرار الممكنات ويسمّى كشفاً نظرياً.

ب- قلبي وفيه تنكشف أنوار مختلفة خاصة بالمشاهدة.

ج- سرّي ويكشف عن أسرار المخلوقات وحكمة خلق الموجودات ويسمّى إلهامياً.

د- روحي ويكشف عرض الجنات والجحيم والمعارج ورؤية الملائكة. وإذا صفا بالكلية تظهر العوالم غير المتناهية ، ويرتفع حجاب الزمان والمكان ، ويحصل الإطلاع على أخبار الماضي وأحوال المستقبل.

هـ- وهو أن يشاهد الله تعالى بالصفات إمّا بالجلال أو الجمال على حسب المقامات ويسمّى كشف صفاتياً.

٢- التجلي :

إنّ محتوى التجلي هو نفس محتوى المكاشفة ، ويختلف من حيث الكيف. والتجلّي هو عبارة عن ظهور نوراني للذات الإلهية وصفاتها وللأمور الروحانية. ويرى ابن عربي أنّ الله تعالى نور يتجلّى في مخلوقاته ، فكل موجود صادر عن الله. والنفس الإنسانية هي الأخرى نور وإن كانت قد خفّ ضوؤها باتحادها بالبدن وأظلمت بالذنوب ، ولكن يبقى فيها مع ذلك شيء من النّور يخرج منه شيء شبيه بالدخان ، من طبعه أن يصعد إلى فوق ،

[1] - أثين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 213.

وإذا وضع على هذا الدخان الذي يصعد من الذبالة النور المشتعل لمصباح مضيء ، فإنّ النور ينـــزل مباشرة عن طريق الدخان ويمسك بالذبالة[1]. ويرى ابن عربي أنّ التجلي الإلهي حين يصل إلى النفس من خلال الروح ، فإنّه لا يستطيع أن يتحمّل الإشعاع الساطع للموجود الأزلي فيبهره ، ويتموّج على ساحل القلب فينشأ الوجد. والنفس حين تتلقّى تجليات النور الإلهي فإنّها تظلّ ساكنة مستغرقة في تأمّل الحضرة الإلهية وتتركّز على اهتمامات النفس وتجتمع في أمر واحد.

والمشاهدة هي الشكل الثالث للوجدان الصوفي ؛ فإذا طويت الحجب الّتي تحجب عن الله وأشرقت النفس بأنوار الأعلى لم يبق إلاّ المشاهدة. فلمّا يصبح القلب مصقولا صافيا مثل المرآة بفعل الذكر تظهر على سطحه أنوار النور الإلهي. وتظهر المشاهدة على نحويْن إحداهما يُسمّى المشاهدة المشرقة وموضوعها صفات الجمال الإلهي ، والثانية تسمّى المشاهدة " المحرقة " وموضوعها صفات الجلال الإلهي[2].

يمثّل الفناء أوج الحياة الباطنية وأشدّها. وكلّ الأحوال والمقامات الروحية تمهّد لهذه الكرامة وشأنها شأن كلّ الكرامات ، ليس ثمرة ضرورية ونتيجة لازمة لاستعداد الشخص. فحسب ابن عربي فإنّ الفناء قد يقع للعباد غير الكمّل كما يقع للكمّل ، وهم الواصلون إلى الله تعالى. والعملية النفسية للفناء كما يراها ابن عربي تكون بالتركيز وحشد النشاط على فكرة واحدة هي الله ، باستبعاد كلّ فكرة أو صورة أو خاطر يتعلّق بالمخلوقات من شأنه أن يستبعد من الشعور حضور كلّ الكائنات المخلوقة. يميّز ابن عربي عدّة أنواع من الدرجات لمقام الفناء : الأولى يفقد العبد الشعور بالأفعال الإنسانية الخاصة به وبغيره ، ويراها آثارا لله الذي هو علّتها الوحيدة. والثانية يفقد الشعور بمكانته وقواه وصفاته ، ويراها مكانا لله. والثالثة يستغرق العبد في مشاهدة الله والأمور الإلهية. والرابعة تؤدي المشاهدة إلى إبعاد كلّ

[1] – أثين بلاثيوس : ابن عربي حياته ومذهبه ، المرجع السابق ، ص 218.

[2] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

ما يسوي الله عن النفس. وفي خلال هذه المراحل يحصل للعبد شعـــور روحي بالحلاوة والسعـــادة. وطبيعـــة هذا الشعور لا يمكن التعبير عنها ، لأنّها لا تشابه أي إحســـاس جسماني بالحلاوة أو مثـــالي فكري عقلي اعتاد الإنسان الشعور به[1]. يصنف ابن عربي حالة الفناء إلى ثلاثة حالات :

أ- الحالة الأولى : يكون الوارد على العبد شديدا أكبر ممّا تتحمّل قواه فيستولي عليه بحيث يتجرّد من كلّ إرادة وحريّة طوال بقاء هذه الحالة.

ب- الحالة الثانية : يحتفظ العبد فيها بالتمييز.

ج- وفي الحالة الثالثة : إذا زال الوارد وذهب الفناء عاد العبد إلى الحالة العادية.

ومن الكرامات البـــاطنية يذكر الدارسون ما كتبه العلماء المسلمون من التصانيف في الوقت القليل بحيث لو وزّع تصنيفهم على زمان اشتغالهم بالعلم إلى أن ماتوا لم يف به نَسْخاً فضلا عن التصنيف. وهذا نوع من نشر الزمن كما يعتقد الصوفية. ويذكر أنّ عُمُرَ الشافعي رحمه الله لا يفي بعُشر ما كتبه من التصانيف مع ما ثبت عنه من تلاوة القرآن كلّ يوم ختمة مع التدبّر ، وفي رمضان كلّ يوم ختمتيْن ، واشتغـــاله بالدروس والفتاوي والذكر ومع الأمراض الّتي كانت تطرأ عليه بحيث لم يخل من العلل وكذلك ما يحكى عن الإمام أبي زكريا النووي.

وقال التاج السبكي في طبقاته : وما منحه الله تعالى لعلماء هذه الأمّة وأوليائها من العلوم حتّى صنّفوا كتبا مع التوفيق لدقائق تخرج عن الحصر واستنباطات تطرب ذوي النهى، واستخراجات لمعان شتّى من الكتاب والسنة وتحقيق للحقّ وإبطال للباطل ، وما صبـــروا عليه من المجاهدات والرياضات والدعوة إلى الحق والصبر على أنواع الأذى

[1] - أثين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 223.

وعزوف أنفسهم عن لذّات الدنيا مع نهاية عقولهم وذكائهم وفطنتهم ، وما حبب إليهم من الدّأب في العلوم وكذا بذل النفس في تحصيلها[1].

وفي معرض الكلام عن هذه الكرامات يرى ابن تيمية[2] « أنّ أهل الحقّ من هؤلاء كما يصفهم لهم ذوق ووجد ومكاشفة ومخاطبة صحيحة ومطابقة. كما ورد عن النبيّ ﷺ أنّه قال : « قد كان في الأمم قبلكم محدّثون ، فإن يكن في أمّتي أحد فعمر ». وأمّا الفراسة فقد ورد عن النبيّ ﷺ أنّه قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله ، ثمّ قرأ قوله تعالى : ﴿ إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين ﴾[3]. وقال بعض الصحابة : أظنّه والله ، الحقّ يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم.

ويذكر ابن تيمية إمكان حصول المعرفة بدون علم ولا نظر. فيقول : « وهذا القدر ممّا أقرّ به حذّاق النظر لمّا تكلّموا في وجوب النظر وتحصيل العلم. فقيل لهم أهل الحقيقة والرياضة والعبادة ، يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر. كما قال الشيخ الملقب بالكبيري ورفيقه الرازي : يا شيخ ، بلغنا أنّك تعلم علم اليقين ، فقال نعم ، فقالا كيف تعلم ونحن نتناظر في زمان طويل كلّما ذكر شيء أفسدته ، فقال : هو واردات ترد على النفوس ، تعجز النفوس عن ردّها. فجعلا يعجبان من ذلك ويكرّران الكلام ». وطلب أحدهما أن يحصل له هذه الواردات ، فعلّمه الشيخ وأدّبه حتّى حصلت له ، وكان من المعتزلة النفاة[4].

---

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني : جامع كرامات الأولياء ، ج1 ، المرجع السابق ، ص 35.

[2] – الفرقان بين الحق والباطل : الإمام ابن تيمية ، مكتبة النهضة الجزائر – د.ت ، ص 91.

[3] – سورة الحجر ، الآية 75.

[4] – أحمد بن تيمية ، المرجع السابق ، ص 91.

المبحث الثاني

الكرامات عبر الأزمنة

وتجدر الإشارة إلى أنّ الكرامات متفاوتة من حيث طبيعتها وذلك بحسب الزمان والمكان والظروف المحيطة. من ذلك أنّ كرامات الصحابة رضي الله عنهم تختلف عن كرامات التابعين ، وهذه تختلف عن كرامات المتأخرين ، حيث ساد الانحطاط الديني والفكري في المجتمع الإسلامي. نورد هنا بعض الكرامات الّتي وقعت للصحابة رضي الله عنهم لنميّزها ونستخرج بعض الخصائص الّتي تبدو جلية حين نقارنـــها بكرامات التابعين وكرامات العصور المتأخرة.

I- كرامات الصحابة والتابعين رضي الله عنهم :

كرامات الصحابة :

المدد بالملائكة في الغزوات :

- أخرج البيهقي عن سهل بن سعد قال : قال أبو أسيد ﷺ بعدما ذهب بصره : « يا ابن أخي ، والله لوكنت أنا وأنت ببدر ثمّ أطلق الله بصري لأريتك الشعب الذي خرجت علينا منه الملائكة من غير شكّ ولا تمار »[1].

- عن عروة قال : نزل جبريل عليه السلام يوم بدر على سيماء الزبير وهو معتجر بعمامة صفراء.

[1] - محمد يوسف الكندهـــلوي : حياة الصحابة ، الجزء الثالث ، دار صعب ، بيروت ، 1965 ، ص 532.

– وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها على ظهورهم ، ويوم حنين عمائم خضر ، ولم تقتل الملائكة يوما إلاّ يوم بدر وإنّما كانوا يكثرون عددا ومددا لا يضربون[1].

– عن عوف بن عبد الرحمان مولى أمّ برثن عمّن شهد حنينا كافرا قال : لمّا التقينا نحن ورسول الله ﷺ لم يقوموا. فجئنا نمشّ سيوفنا بين يدي رسول الله ﷺ حتّى إذا غشيناه فإذا بيننا وبينه رجال حسان الوجوه فقالوا : شاهت الوجوه فارجعوا فهزمنا من ذلك الكلام[2].

– عن جبير بن مطعم ﷺ قال : إنّا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتتلون ، إذ نظرت مثل البجاد الأسود يهوي من السماء حتّى وقع بيننا وبين القوم فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي فلم يكن إلاّ هزيمة القوم ، فما كنّا نشكّ أنّها الملائكة[3].

– عن عبد الله بن الفضل قال : أعطى رسول الله ﷺ يوم أحد مصعب بن عمير ﷺ اللواء، فقُتل مصعب ، فأخذه مَلَكٌ في صورة مصعب ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له في آخر النهار: تقدّم يا مصعب ، فالتفت إليه الملك فقال : لست بمصعب ، فعرف رسول الله ﷺ أنّه ملك أُيّد به[4].

– وعن حميد بن هلال فذكر الحديث بطوله في غزوة بني قريظـــة ، وفيه قال : فوضع رسول الله ﷺ وأصحابه السلاح فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فخرج إليه فنزل رسول الله ﷺ متساند إلى لبان الفرس ، فقال جبريل عليه السلام : ما وضعنا السلاح بعد. وإنّ الغبار لعاصب على حاجبيه ، انهد إلى بني قريظة. قال رسول الله ﷺ : إنّ أصحابي

---

[1] – محمد يوسف الكندهـــلوي ، المرجع السابق ، ص 535.

[2] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[4] – المرجع نفسه ، ص 536.

جهدوا فلو انتظرتم أيّاما ، قال : يقول جبريل عليه السلام : اهد إليهم ، لأدخلن فرسي هذا عليهم في كهوفهم ثمّ لأضعضعنّها. قال : فأدبر جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة حتّى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار[1].

– عن سهل بن عمرو ﷺ قال : لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلّمين يقتلون ويأسرون.

– عن البراء ﷺ وغيره قال : جاء رجل من الأنصـــار بالعباس قد أسره ، فقال العبـــاس : يا رسول الله ليس هذا أسرني ، أسرني رجل من القوم انزع من هيئته كذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ : قد آزرك الله بملك كريم[2].

– عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما رجل من المسلمين يشتدّ في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط وصوت الفرس : أقدم حيزوم ، إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خرّ مستلقيا. فنظر إليه فإذا هو خطم وشُقّ وجهه بضربة السوط وحضر ذلك الجمع. فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال : صدقت ، ذلك مدد من السماء الثالثة. فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعيناً[3].

– عن أبي طلحة ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فلقي العدو فسمعته يقول : يا مالك يوم الدين ، إيّاك نعبد وإيّاك نستعين ، فلقد رأيت الرجال تصرع ، تضربها الملائكة من بين أيديها ومن خلفها[4].

---

[1] – محمد يوسف الكندهـــلوي ، المرجع السابق ، ص 536.

[2] – المرجع نفسه ، ص 537.

[3] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[4] – المرجع نفسه ، ص 538.

– عن أبي أمامة بن سهل عن أبيه قال : يا بنيّ لقد رأيتنا يوم بدر وإنّ أحدنا ليشير إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

– عن سهل بن أبي حثمة أنّ أبا برزة الحارثي ﷺ جاء يوم بدر بثلاثة رؤوس يحملها إلى رسول الله ﷺ قال : ظفرت يمينك. قال : يا رسول الله ، أمّا اثنان فأنا قتلتهما وأمّا الآخر فرأيت رجلا أبيض جميلاً حسن الوجه ضرب رأسه. فقال رسول الله ﷺ : ذاك فلان ملك من الملائكة[1].

– عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مرّ رسول الله ﷺ على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون : هذا الذي يزعم أنّه نبيّ ومعه جبريل. فغمز جبريل بأصبعه فوقع مثل الظفر في أجسامهم فصارت قروحا حتّى نتنوا ، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم. فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ إنّا كفيناك المستهزئين ﴾[2].

– عن أنس بن مالك ﷺ قال : كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يكنى أبا معلق وكان تاجرا يتّجر بمال له ولغيره ، وكان له نسك وورع. فخرج مرّة فلقيه لص متقنع في السلاح فقال : ضع متاعك فإنّي قاتلك ، قال : شأنك بالمال ، قال لست أريد إلاّ دمك ، قال فذرني أصلّي ، قال : صلّ ما بدا لك ، فتوضّأ ثمّ صلّى فكان من دعائه يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعّالا لما يريد أسألك بعزّتك الّتي لا ترام وملكك الذي لا يضام وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شرّ هذا اللّص يا مغيث أغثني ، قالها ثلاثا. فإذا هو بفارس بيده حربة رافعها بين أذني فرسه فطعن اللّص فقتله ثمّ أقبل على التاجر ، فقال : من أنت ؟ فقد أغاثني الله بك. قال : إنّي ملك من أهل السماء الرابعة لمّا دعوت سمعت لأبواب السماء قعقعة ثمّ دعوت ثانية فسمعت لأهل السماء ضجة ، ثمّ دعوت ثالثا فقيل : دعاء

[1] – محمد يوسف الكندهلوي ، المرجع السابق ، ص 538.

[2] – سورة الحجر ، الآية 95.

مكروب فسألت الله أن يوليني قتله ، ثمّ قال : ابشروا أنّه من صلّى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب[1].

رؤيتهم الملائكة :

- عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ سمع صوت رجل فوثب وثبة شديدة وخرج إليه. قالت : فاتبعته أنظر فإذا هو متّكئ على برذونه وإذا هو دحيّة الكلبي ﷺ فيما كنت أرى وإذا هو معتمّ مرخ عمامته بين كتفيه. فلمّا دخل رسول الله ﷺ قلت : لقد وثبت وثبة شديدة ثمّ خرجت انظره فإذا هو دحية الكلبي ، قال : أو رأيته ؟ قلت نعم ، قال ذلك جبريل عليه السلام أمرني أن أخرج إلى بني قريظة[2].

- أخرج الطبراني عن عروة بن رويم عن العرباض بن سارية ﷺ وكان شيخاً كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ وكان يحبّ أن يقبض فكان يدعو : اللهم كبرت سنّي ورقّ عظمي فاقبضني إليك. قال فبينا أنا يوما في مسجد دمشق إذا فتى شاب من أجمل الرجال وعليه دواح أخضر ، فقال : ما هذا الذي تدعو به ؟ قلت : كيف أدعو يا بن أخي ؟ قال ، قل : اللهمّ حسّن العمل وبلّغ الأجل ، قلت من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا ريبائيل الذي يسل الحزن من قلوب المؤمنين[3].

سلام الملائكة عليهم وخطابهم وسماع كلامهم :

- عن مطرف بن عبد الله بن حصين رضي الله عنهما أنّه قال : اعلم يا مطرف أنّه كان تسلّم الملائكة عليّ عند رأسي وعند البيت وعند بـــاب الحجر فلما اكتويت ذهب ذلك.

---

[1] - محمد يوسف الكندهلوي ، المرجع السابق ، ص 542.

[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] - المرجع نفسه ، ص 544.

فلما كلمه ، قال : اعلم يا مطرف أنّه عاد إليّ الذي كنت أفقد. اكتم عليّ يا مطرف حتّى أموت[1].

- عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال أبيّ بن كعب ﷺ : لأدخلنّ المسجد فلأصلّينّ ولأحمدنّ الله بمحامد لم يحمده بها أحد. فلمّا صلّى وجلس ليحمد الله ويثني عليه فإذا هو بصوت عال من خلفه يقول : اللهمّ لك الحمد كله ولك الملك كله ، وبيدك الخير كلّه ، وإليك يرجع الأمر كلّه علانيته وسرّه ، لك الحمد إنّك على كلّ شيء قدير ، اغفر لي ما مضى من ذنوبي ، واعصمني فيما بقي من عمري ، وارزقني أعمالاً زاكية ترضى بها عنّي وتب عليّ ، فأتى رسول الله ﷺ فقصّ عليه ، فقال : ذاك جبرائيل عليه السلام[2].

نزول الملائكة لقرآنهم :

- عن أبي سعيد الخذري أنّ أسيد بن حضير رضي الله عنهما : بينما هو في ليلة يقرأ في مربده إذ جالت فرسه فقرأ ، ثمّ جالت أخرى فقرأ ثمّ جالت أخرى أيضا. قال أسيد : فخشيت أن تطأ ابني يحي فقمت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج عرجت في الجو ما أراها. قال فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة في جوف الليل أقرأ في مربدي إذ جالت فرسي فقال رسول الله ﷺ تلك الملائكة تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم.

تولّي الملائكة غسل جنائزهم :

- عن محمود بن لبيد عن حنظلة بن أبي عامر أخي بني عمر بن عوف ﷺ أنّه التقى هو وأبو سفيان بن حرب يوم أحد فلمّا استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود ، وكان يقال له :

[1] - محمد يوسف الكندهلوي ، المرجع السابق ، ص 545.

[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

ابن شعوب قد علا أبو سفيان فضربه شداد فقتله. فقال رسول الله ﷺ : إنّ صاحبكم يعني حنظلة لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه. فسألت صاحبته فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتف. فقال رسول الله ﷺ : لذلك غسّلته الملائكة[1].

– عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : فقام رسول الله ﷺ فأتاه ملك أو قال جبريل ، حين استيقظ فقال : من رجل من أمّتك مات الليلة استبشر بموته أهل السماء ، قال : لا أعلم إلاّ أنّ سعدا أمسى حتفه ، فسأل : ما فعل سعد ، قالوا : يا رسول الله قد قبض وجاءه قومه فاحتملوه إلى ديارهم. قال : فصلّى رسول الله ﷺ الصبح ثمّ خرج ومعه الناس فبت الناس مشيا حتّى أنّ شسوع نعالهم لتنقطع من أرجلهم وأنّ أرديتهم لتقع عن عواتقهم. فقال له رجل : يا رسول الله قد بتت الناس ، فقال النبيّ ﷺ : إنّي أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة كما سبقتنا إلى حنظلة[2].

سماعهم الهواتف :

– عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ استعمل أبا موسى رضي الله عنه على سرية البحر ، فبينا هي تجري فيهم في البحر في الليل إذ ناداهم مناد من فوقهم : ألا أخبركم بقضاء قضاه الله على نفسه؟ إنّه من يعطش لله في يوم صائف فإنّه حقّاً على الله أن يسقيه يوم العطش الأكبر[3].

– عن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس رضي الله عنهما بالطائف فشهدت جنازته، فجاء طير لم ير على خلقته ودخل في نعشه فنظرنا وتأمّلنا هل يخرج ؟ فلم ير أنّه خرج من

[1] – محمد يوسف الكندهلوي ، المرجع السابق ، ص 548.

[2] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] – المرجع نفسه ، ص 570.

نعشه. فلمّا دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدري من تلاها : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي ﴾[1].

تسخير الجنّ والشياطين :

– أخرج الطبراني عن بريدة ﷺ قال : بلغني أنّ معاذ بن جبل ﷺ أخذ الشيطان على عهد رسول الله ﷺ ، فأتيته فقلت : بلغني أنّك أخذت الشيطان على عهد رسول الله ﷺ ، قال : نعم ، ضمّ إليّ رسول الله ﷺ تمر الصدقة فجعلته في غرفة لي فكنت أجد فيه كلّ يوم نقصاناً. فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال لي : هو عمل الشيطان فارصده. قال فرصدته ليلا ، فلمّا ذهب هون من الليل أقبل على صورة الفيل ، فلمّا انتهى على الباب دخل من خلل الباب على غير صورته فدنا من التمر فجعل يلتقمه. فشددت على ثيابي فتوسطته فقلت : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمدا عبده ورسوله يا عدوّ الله وثبت إلى تمر الصدقة فأخذته وكانوا أحق به منك. لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ فيفضحك. فعاهدني ألاّ يعود ، فغدوت إلى رسول الله ﷺ فقال ما فعل أسيرك ؟ فقلت عاهدني ألاّ يعود. قال : إنّه عائد فارصده. فرصدته الليلة الثانية فصنع مثل ذلك وصنعت مثل ذلك. وعاهدني أن لا يعود فخليت سبيله. ثمّ غدوت إلى رسول الله ﷺ لأخبره فإذا مناديه ينادي : أين معاذ ؟ فقال لي يا معاذ ! ما فعل أسيرك ؟ فأخبرته ، فقال لي : إنّه عائد فارصده. فرصدته الليلة الثالثة فصنع مثل ذلك وصنعت مثل ذلك. فقلت يا عدوّ الله ! عاهدتني مرّتين وهذه الثالثة لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ فيفضحك. فقال : إنّي شيطان ذو عيال وما أتيتك إلاّ من نصيبين ولو أصبت شيئا دونه ما أتيتك. ولقد كنّا في مدينتكم هذه حتى بُعث صاحبكم ، فلمّا نزلت عليه آيتان انفرتنا منها فوقعنا بنصيبين ولا يقرآن في بيت إلاّ لم يلج فيه الشيطان ثلاثا ، فإن خليت سبيلي علّمتكهما. قلت : نعم قال : آية الكرسي وخاتمة سورة البقرة

[1] – سورة الفجر ، الآية 27–30.

آمن الرسول إلى آخرها ، فخليت سبيله ثمّ غدوت إلى رسول الله ﷺ لأخبره فإذا مناديه ينادي : أين معاذ بن جبل ؟ فلمّا دخلت عليه قال لي : ما فعل أسيرك ؟ قلت عاهدني أن لا يعود وأخبرته بما قال فقال رسول الله ﷺ : صدق الخبيث وهو كذوب[1].

سماعهم أصوات الجمادات :

– أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة ، أو نخلة. فقالت امرأة من الأنصار أو رجل : يا رسول الله ، ألا نجعل لك منبراً ؟ قال : إن شئتم ، فجعلوا له منبراً. فلمّا كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فصاحت النخلة صياح الصبيّ ، ثمّ نزل النبيّ ﷺ فضمّه إليه يئنّ أنين الصبيّ الذي يسكن. قال كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عليها[2].

– عن أبي البحتري قال : بينما أبو الدرداء ﷺ يوقد تحت قدر له وسلمان ﷺ عنده ، إذ سمع أبو الدرداء في القدر صوتا ، ثمّ ارتفع الصوت بتسبيح كهيئة صوت الصبيّ. قال ، ثمّ ندرت فانكفأت ثمّ رجعت إلى مكانها لم ينصب منها شيء. فجعل أبو الدرداء ينادي : يا سلمان انظر إلى العجب ! انظر إلى ما لم تنظر إلى مثله أنت ولا أبوك. فقال سلمان : أما إنّك لو سكتّ لسمعت من آيات ربّك الكبرى[3].

سماعهم كلام أهل القبور :

– عن يحيى بن أيوب الخزاعي قال : سمعت من يذكر أنّه كان في زمن عمر بن الخطاب ﷺ شاب متعبّد قد لزم المسجد وكان عمر به معجبا ، وكان له أب شيخ كبير. فكان إذا صلّى العتمة انصرف إلى أبيه. وكان طريقه على باب امرأة فافتتنت به ، فكانت تنصب نفسها له

[1] – محمد يوسف الكندهلوي ، المرجع السابق ، ص 585.

[2] – المرجع نفسه ، ص 592.

[3] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

على طريقه. فمرّ بها ذات ليلة فما زالت تغويه حتّى تبعها. فلمّا أتى الباب دخلت وذهب يدخل فذكر الله وجلى عنه ومثلت هذه الآية على لسانه ﴿ إنّ الذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون ﴾[1] فخرّ الفتى مغشيا عليه. فدعت المرأة جارية لها فتعاونت عليه فحملتاه إلى بابه وأجلس ودقّ على أبيه. فخرج أبوه يطلبه فإذا به على الباب مغشيا عليه. فدعا بعض أهله فحملوه ، فأدخلوه فما أفاق حتّى ذهب من الليل ما شاء الله. فقال له أبوه : يا بني ! ما لك ؟ قال : خير ، قال : فإنّي أسألك بالله ، فأخبره بالأمر. قال: أي بنيّ ، وأيّ آية قرأت ؟ فقرأ الآية الّتي كان قرأ فخرّ مغشيا عليه فحرّكوه فإذا هو ميّت. فغسّلوه فأخرجوه ودفنوه ليلا. فلمّا أصبحوا رفع ذلك إلى عمر. فجاء إلى أبيه فعزاه به وقال ألا آذنتني ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! كان ليلا. قال عمر : فاذهبوا بنا إلى قبره ، فأتى عمر ومن معه القبر فقال عمر : يا فلان ﴿ ولمن خاف مقام ربّه جنّتان ﴾[2] ، فأجابه الفتى من داخل القبر : يا عمر ! قد أعطانيها ربّي في الجنّة مرتين[3].

خضوع السباع لهم وكلامهم معهم :

- عن حمزة بن أسيد ﷺ قال : خرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار بالبقيع فإذا الذئب مفترشا ذراعيه على الطريق فقال رسول الله ﷺ : هذا جاء يستفرض فافرضوا له، قالوا : ترى رأيك يا رسول الله قال : من كلّ سائمة شاة في كلّ عام. قالوا : كثير. قال فأشار إلى الذئب أن خالسهم ، فانطلق الذئب[4].

---

[1] - سورة الأعراف ، الآية 201.

[2] - سورة الرحمان ، الآية 46.

[3] - محمد يوسف الكندهلوي ، المرجع السابق ، ص 592.

[4] - المرجع نفسه ، ص 608.

- أخرج البيهقي عن بن المنكدر أنّ سفينة ﷺ مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم أو أسر في أرض الروم. فانطلق هاربا يلتمس الجيش فإذا هو بالأسد ، فقال : يا أبا الحارث إنّي مولى رسول الله ﷺ كان من أمري كيت وكيت ، فأقبل الأسد يبصبص حتّى قام إلى جنبه ، كلما سمع صوته أهوى إليه. ثمّ أقبل يمشي إلى جنبه فلم يزل كذلك حتّى أبلغه الجيش ثم رجع الأسد عنه[1].

- عن وهب بن أبان القرشي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه خرج في سفر فبينا هو يسير إذ قوم وقوف فقال : ما بال هؤلاء ؟ قالوا : أسد على الطريق قد أخافهم. فنـــزل عن دابته ثمّ مشى إليه حتّى أخذ بأذنه فعركها ثمّ نفذ قفاه ونحاه عن الطريق. ثمّ قال : ما كذب عليك رسول الله ﷺ ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّما يسلّط على ابن آدم ما خافه ابن آدم ولو أنّ ابن آدم لم يخف إلاّ الله لم يسلّط عليه غيره. وإنّما وُكّل ابن آدم لمن رجا ابن آدم ، ولو أنّ ابن آدم لم يرج إلاّ الله لم يكله إلى غيره[2].

- عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : عدا الذئب على شـــاة فأخذها ، فطلبه الراعي فانتزعها منه ، فأقعى الذئب على ذنبه فقال : ألا تتقي الله ؟ تنـــزع مني رزقا ساقه الله إليّ. فقال : يا عجبا ! ذئب يكلّمني كلام الإنس. فقـــال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ! محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق. قال : فأقبل الراعي يسوق غنمه حتّى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثمّ أتى رسول الله ﷺ فأخبره. فأمر رسول الله ﷺ فنودي : الصلاة جامعة. ثمّ خرج ، فقال للراعي : أخبرهم ، فأخبرهم. فقال رسول الله ﷺ صدق ، والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتّى يكلّم السباع الإنس ويكلّم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده[3].

---

[1] - محمد يوسف الكندهلوي ، المرجع السابق ، ص 608.

[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] - المرجع نفسه ، ص 609.

تسخير البحار لهم :

– عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال : لمّا فتح عمرو بن العاص ﷺ مصر أتى أهلها إليه حين دخل بونة ، من أشهر العجم. فقالوا له : أيها الأمير ! إنّ لنيلنا هذا سنّة لا يجري إلاّ بها. فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إنّه إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها شيئا من الحلي والثياب أفضل ما يكون ، ثمّ ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عمرو : إنّ هذا لا يكون في الإسلام فإنّ الإسلام يهدم ما قبله. فأقاموا بونة وأبيب ومسرى لا يجري قليلا ولا كثيرا ، حتّى همّوا بالجلاء. فلمّا رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ بذلك. فكتب إليه عمر : قد أصبت أنّ الإسلام يهدم ما قبله. وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي. فلمّا قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أمّا بعد : فإن كنت تجري من قِبَلك فلا تجر. وإن كان الواحد القهار يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك. فألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم الصليب بيوم ، وقد تهيّأ أهل مصر للجلاء وللخروج منها لأنهم لا يقوم بمصلحتهم فيها إلاّ النيل ، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر[1].

إطاعة النار لهم :

– عن معاوية بن حرمل قال : قدمت المدينة فذهب بي تميم الداري ﷺ إلى طعامه فأكلت أكلاً شديداً وما شبعت من شدّة الجوع ، فقد كنت أقمت في المسجد ثلاثا لا أطعم شيئا. فبينما نحن ذات يوم إذ خرجت نار بالحرة ، فجاء عمر إلى تميم ﷺ فقال قم إلى هذه النار. فقال : يا أمير المؤمنين من أنا ؟ وما أنا ؟ فلم يزل به حتّى قام معه. قال : وتبعتهما فانطلقا

[1] – محمد يوسف الكندهلوي : حياة الصحابة ، المرجع السابق ، ص 609.

إلى النار قال ، فجعل يحوشها بيده هكذا حتّى دخلت الشعب ودخل تميم خلفها وجعل عمر يقول : ليس من رأى كمن لم ير[1].

الإضاءة لهم :

- عن أبي هريرة ﷺ قال : كان الحسن ﷺ عند النبيّ ﷺ في ليلة ظلماء وكان يحبه حبّاً شديدا فقال : أذهب إلى أمّي. فقلت : أذهب معه يا رسول الله ﷺ ؟ قال : لا. فجاءت برقة من السماء فمشى في ضوئها حتّى بلغ إلى أمّه[2].

- عن عبد الحميد بن أبي عبس الأنصاري أنّ أبا عبس ﷺ كان يصلّي مع رسول الله ﷺ الصلوات ثمّ يرجع إلى بني حارثة ، فخرج في ليلة مظلمة مطيرة ، فنُوِّرَ له في عصاه حتّى دخل دار بني حارثة. قال البيهقي : أبو عبس ممّن شهد بدرا[3].

رويّتهم بالشرب في النوم :

- عن عبد الله بن سلام قال : أتيت عثمان ﷺ لأسلّم عليه وهو محصور. فدخلت عليه فقال: مرحبا بأخي ! رأيت رسول الله ﷺ الليلة في هذه الخوخة فقال : يا عثمان حصروك ، قلت نعم. قال : عطّشوك ، قلت نعم. فأدلى دلوا فيه ماء فشربت حتّى رويت ، حتّى إنّي لأجد برده بين ثديي وبين كتفي. وقال لي إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا. فاخترت أن أفطر عنده. فقتل ذلك اليوم[4].

[1] - محمد يوسف الكندهلوي ، المرجع السابق ، ص 617.
[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
[3] - المرجع نفسه ، ص 620.
[4] - المرجع نفسه ، 654.

المال من حيث لم يحتسبوا :

– عن ضباعة بنت الزبير رضي الله عنها وكانت تحت المقداد ﷺ قالت : كان الناس إنّما يذهبون لحاجتهم فرط اليومين والثلاث فيبعرون كما تبعر الإبل ، فلمّا كان ذات يوم خرج المقداد لحاجته حتّى بلغ الحجبة وهو ببقيع الغرقد ، فدخل خربة لحاجته ، فبينما هو جالس إذ أخرج جرذ من جحره دينارا. فلم يزل يخرج دينارا دينارا حتّى بلغ سبعة عشر دينارا. فخرج بها حتّى جاء بها النبيّ ﷺ فأخبره خبرها ، فقال : هل أتبعت يدك الجحر ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ! فقال : لا صدقة عليك فيها ، بارك الله لك فيها. قالت ضباعة : فما فنـــيَ آخرها حتّى رأيت غرائر الورق في بيت المقداد[1].

– عن عبد الرحمان بن يزيد بن جابر قال : حدّثتني مولاة أبي أمامة ﷺ قالت : كان أبو أمامة يحبّ الصدقة ويجمع لها وما يردّ سائلاً ولو ببصلة أو بتمرة أو بشيء ممّا يؤكل. فأتاه سائل ذات يوم وقد افتقر من ذلك كلّه وما عنده إلاّ ثلاثة دنانير فسأله فأعطاه ديناراً. ثمّ أتاه سائل فأعطاه ديناراً ، ثمّ أتاه سائل فأعطاه ديناراً. قالت فغضبت وقلت : لم تترك لنا شيئا. قالت فوضع رأسه للقائلة. قالت ، فلمّا نودي للظهر أيقظته فتوضأ ثمّ راح إلى المسجد. قالت ، فرفقت عليه وكان صائماً فتقرضت وجعلت له عشاء وأسرجت له سراجاً وجئت إلى فراشه لأمهّد له فإذا بذهب فعددتـــها فإذا ثلاثمائة دينار. قالت قلت ، ما صنع الذي صنع إلاّ وقد وثق بما خلف. فأقبل بعد العشاء. قالت فلمّا رأى المائدة ورأى السراج تبسّم وقال : هذا خير من عنده. قالت ، فقمت على رأسه حتّى تعشّى فقلت : يرحمك الله ! خلّفت هذه النفقة سبيل مضيعة و لم تخبرني فأرفعها. قال : وأيّ نفقة ! ما خلّفت شيئاً. قالت ، فقمت فقطعت زناري وأسلمت. قال ابن جابر فأدركتها في مسجد حمص وهي تعلّم النساء القرآن والسنن والفرائض وتفقههنّ في الدين[2].

---

[1] – محمد يوسف الكندهلوي ، المرجع السابق ، ص 655.

[2] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

ذهاب أثر السمّ :

- أخرج أبو يعلى عن أبي السفر قال : نزل خالد بن الوليد ﷺ الحيرة على أمير بني المرازبة فقالوا له : احذر السم لا تسقيكه الأعاجم. فقال : ائتوني به. فأتي به فأخذه بيده ثمّ اقتحمه وقال : بسم الله فلم يضرّه شيء[1].

تجدر الإشارة إلى أنّ الكرامات في عهد الصحابة رضي الله عنهم تبدو أقرب إلى المنطق وممّا يتقبّله العقل السليم المؤمن بقدرة الله تعالى الذي وصف نفسه أنّه على كلّ شيء قدير. وهذه الكرامات تبدو للناظر وأنّها خالية من البهرجة والاحتيال ، وكأنّها حقيقة واقعة تاريخية ، وذلك لوقوعها في فترة روحانية راقية وهي فترة النبوّة. وكانت هذه الفترة ، فترة الصحابة والتابعين ، طريق الحق والهداية وأقلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها ، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه ، وكان ذلك عامّاً في الصّحابة والسلف. وكان أبو بكر وعمر أزهد الناس بعد رسول الله ﷺ وأكثرهم عبادة ولم يختصّ أحد منهم في الدين والورع بشيء يؤثر عنه في الخصوص ، بل كان الصحابة كلّهم أسوة حسنة في الدين والورع والزهد والمجاهدة ، تشهد بذلك سيرهم وأخبارهم. فأمّا كراماتـــهم فما أقرّ بها العلامة ابن خلدون في مقدّمته يقول: « أمّا الكرامات فأمر صحيح غير منكر ، وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحقّ »[2].

ثم بعد هذه الفترة الروحية الزاهرة فشى الإقبال على الدنيا وذلك في القرن الثاني وما بعده. وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، فاختصّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة. وأصبح التصّوف علما مبنيّا على الإرادة وهي حركة القلب. كان هذا العلم مرتبطا بالعبادات وآثارها الروحية واتصالها بالقلوب ، ثمّ أخذ يتسامى إلى نظرية خاصة في المعرفة

[1] - محمد يوسف الكندهلوي ، المرجع السابق ، ص 656.

[2] - عبد الرحمان بن خلدون ، المرجع السابق ، ص 879 وما بعدها.

في مرحلة لاحقة. أصبح الكمال الديني الذي يعبّر عنه الصوفية شيئاً وراء ما يدعو إليه الفقهاء ، هو صفاء القلب وحسن الخُلق وأصبح كذلك التماس الإيمان والمعرفة من طريق التصفية والمكاشفة. وقالوا إنّ علم المكاشفة أو علم الباطن هو نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ، وتنكشف بذلك أمورا كثيرة ، وتحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته وبأفعاله وحكمته في خلق الدنيا والآخرة[1].

ثم انصرفت عناية القوم بكشف حجاب الحسّ الذي هو نهاية المراتب ولما وراء ذلك من المدارك والمعارف. واختلفت طريقهم في الرياضة والمجاهدة وإماتة القوى الحسية ، وتغذية الروح بالعبادات والذّكر وتعرّضوا للكلام في حقائق الموجودات العلوية والسفلية. وقالوا إنّ أهل المجاهدة يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ، ويتصرّفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات ، وتصير طوع إرادتهم. ومن ذلك الكلام في الكرامات.

كرامات التـــابعين :

كرامات تتعلّق بالأسد :

- روى القشيري أنّه سمع أبا حاتم السجستاني يقول : سمعت أبا نصر السراج يقول : دخلنا تستر فرأينا في قصر سهل بن عبد الله بيتاً كان الناس يسمّونه بيت السباع. فسألنا الناس عن ذلك فقالوا : كان السباع تجيء إلى سهل وكان يدخلهم هذا البيت ويضيفهم ويطعمهم اللّحم ثمّ يجليهم. قال أبو نصر : رأيت أهل تستر متّفقين على هذا لا ينكرونه[2].

[1] – ماسنيون ومصطفى عبد الرزاق : التصوّف ، المرجع السابق ، ص 80.

[2] – أبو القاسم القشيري : الرسالة القشيرية ، المرجع السابق ، ص 160.

– قيل كان إبراهيم بن أدهم في رقعة فعرض لهم السبع ، فقالوا : يا أبا إسحاق قد عرض لنا السبع. فجاء إبراهيم وقال : يا أسد إن كنت أمرت فينا بشيء فامض وإلاّ فارجع ، فرجع الأسد ومضوا[1].

– حكى أبو نصر السراج عن سليمان الخوّاص يقول كنت راكبا حمارا يوما وكان الذباب يؤذيه فيطأطأ رأسه ، فكنت أضرب رأسه بخشبة في يدي. فرفع الحمار رأسه وقال : اضرب فإنّك على رأسك هو ذا تضرب[2].

– روى القشيري عن محمد بن عبد الله الصوفي قال : سمعت الجنيد عن جابر الرجي قال : أكثر أهل الرحبة عليّ الإنكار في باب الكرامات ، فركبت السبع يوماً ودخلت الرحبة وقلت : أين الذين يكذّبون أولياء الله ؟ قال فكفّوا عن ذلك[3].

– قيل حجّ سفيان الثوري مع شيبان الراعي فعرض لهم سبع. فقال سفيان لشيبان : أما ترى هذا السبع ؟ فقال : لا تخف ، فأخذ شيبان أذنه فعركها بأصبعه وحرّك أذنه. فقال سفيان : ما هذه الشهرة ؟ فقال : لولا مخافة الشهرة لما وضعت زادي إلاّ على ظهره حتّى آتي مكة[4].

كرامات تتعلّق بمادة الذهب :

– روى القشيري قال : سمعت بن سالم يقول : لمّا مات إسحاق بن أحمد دخل سهل بن عبد الله صومعته فوجد فيها سفطا فيه قارورتان في واحد منها شيء أحمر وفي الأخرى شيء أبيض ، ووجد شوشقة ذهب وشوشقة فضة. قال ، فرمى بالشوشقتين في الدجلة وخلط ما في القارورتين بالتراب. وكان على إسحاق ديْن. قال ابن سالم قلت لسهل : إيش كان في

[1] – أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 168.

[2] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[4] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

القارورتين ؟ قال : إحداهما لو طرح وزن درهم على مثاقيل من النحاس صار ذهبا ، والأخرى لو طرح منها مثقال على مثاقيل من الرّصاص صار فضة. فقلت : وإيش عليه لو قضى منه ديْنه ؟ فقال أي دوست خاف على إيمانه[1].

- حكى أبو نصر السراج عن أبي يزيد قال : دخل أبي على السدي وكان أستاذه وبيده جراب فصبها ، فإذا هي جوهر. فقلت : من أين لك هذا ؟ فقال : وافيت واديا ههنا فإذا هو يضيء كالسراج ، فحملت هذا. فقلت : فكيف كان وقتك الذي وردت فيه الوادي ؟ فقال : وقت فترة من الحال الّتي كنت فيها[2].

- عن أحمد بن أحمد السلمي قال : دخلت على ذي النون المصري يوما فرأيت بين يديه طستا من ذهب وحوله الندّ والعنبر يسجر. فقال لي : أنت ممّن يدخل على الملوك في حال بسطهم ، ثمّ أعطاني درهما فأنفقت منه إلى بلخ[3].

- قال الجنيد : جئت إلى مسجد الشونيزية فرأيت فيه جماعة من الفقراء يتكلّمون في الآيات فقال فقير منهم : أعرف رجلا لو قال لهذه الأسطوانة كوني ذهبا نصفك ونصفك فضة كانت. قال الجنيد : فنظرت فإذا الأسطوانة نصفها ذهب ونصفها فضة[4].

كرامات استجابة الدعاء :

- قيل كان لجعفر الخلدي فص فوقع يوما في دجلة وكان عنده دعاء مجرّب للضالة فترد. فدعا به ، فوجد الفصّ في وسط أوراق كان يتصفّحها[5].

---

[1] - أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 164.

[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] - المرجع نفسه ، ص 168.

[4] - المرجع نفسه ، ص 162.

[5] - المرجع نفسه ، ص 160.

– ذكر عن ابن عطاء أنّه قال : سمعت أبا الحسن النوري يقول : كان في نفسي شيء من هذه الكرامات ، فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ، ثمّ قلت : وعزّتك لئن لم يخرج سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقنّ نفسي. قال فخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال فبلغ ذلك الجنيد فقال كان حكمه أن تخرج له أفعى تلدغه[1].

– روى القشيري قال : سمعت أبا حاتم السجستاني عن محمد بن يوسف البناء قال : كان أبو تراب النخشبي صاحب كرامات فسافرت معه سنة ، وكان معه أربعون نفسا. ثمّ أصابتنا مرّة فاقة فعدل أبو تراب عن الطريق وجاء بغدق موز فتناولنا وفينا شاب لم يأكل. فقال له أبو تراب ، فقال الحال الذي أعتقده ترك المعلومات وصرت أنت معلومي. فلا أصحبك بعد هذا. فقال له أبو تراب : كن مع ما وقع لك[2].

– عن المرتعش قال : سمعت الخوّاص يقول : تـــهت في البادية أياما ، فجاءني شخص وسلّم عليّ وقال لي : تـــهت ! فقلت : نعم. فقال : ألا أدلّك على الطريق ، ومشى بين يدي خطوات ثمّ غاب عن عيني ، وإذ أنا على الجادّة. فبعد ذلك ما تـــهت ولا أصابني في سفري جوع ولا عطش[3].

– حكي عن الخوّاص قال : دخلت البادية مرّة ، فرأيت نصرانيا على وسطه زنار ، فسألني الصحبة. فمشينا سبعة أيام فقال لي : يا راهب الحنيفية هات ما عندك من الانبساط فقد جعنا. فقلت : إلهي لا تفضحني مع هذا الكافر. فرأيت طبقا عليه خبز وشواء ورطب وكوز ماء. فأكلنا وشربنا ومشينا سبعة أيام ، ثمّ بادرت وقلت : يا راهب النصارى هات ما عندك ! فقد انتهت النوبة إليك. فاتّكأ على عصاه ودعا فإذا بطبقين عليهما أضعاف ما كان. قال ، فتحيّرت وتغيّرت وأبيت أن آكل فألحّ عليّ فلم أجبه فقال : كلّ فإنّي أبشّرك

[1] – أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 163.

[2] – المرجع نفسه ، ص 165.

[3] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

ببشارتين. إحداهما أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمدا رسول الله وحلّ الزنار ، والأخرى أنّي قلت : اللهمّ إن كان لهذا العبد خطر عندك فافتح عليّ بهذا الفتح ، ففتح. قال : فأكلنا ومشينا[1].

– قيل كان الفضيل على جبل من جبال منن فقال : لو أنّ وليّاً من أولياء الله تعالى أمر هذا الجبل أن يميد لماد قال فتحرّك الجبل فقال : أسكن لم أردك لهذا. فسكن الجبل[2].

– حكي عن عطاء الأزرق أنّه دفعت إليه امرأته درهمين من ثمن غزلها ليشتري الدقيق فدفعها إلى جارية تبكي قد أضاعت درهميها. ثمّ قعد عند صديق له يشق العاج وذكر له الحال وما يخاف من سوء خلق امرأته. فقال له صاحبه : خذ من هذه النشارة في هذا الجراب لعلّكم تنتفعون بها في سجر التنور. فحمل النشارة وفتح باب داره ورمى بالجراب ورد الباب ، ودخل المسجد إلى ما بعد العتمة ليكون النوم قد أخذهم ولا تستطيل عليه المرأة. فلمّا فتح الباب وجدهم يخبزون الخبز. فقالوا : من الدقيق الذي كان في الجراب لا تشتري غير هذا الدقيق. قال : أفعل إن شاء الله تعالى[3].

كرامات تتعلق بالخضر :

– روى القشيري قال : سمعت منصور المغربي يقول : رأى بعضهم الخضر عليه السلام فقال له : هل رأيت فوقك أحد ؟ فقال : نعم ، كان عبد الرزاق بن همام يروي الأحاديث بالمدينة والناس حوله يستمعون فرأيت شابا بالبعد منهم رأسه على ركبتيه ، فقلت له : هذا عبد الرزاق يروي أحاديث رسول الله ﷺ فلم تسمع منه. فقال : إنّه يروي عن ميّت وأنا

[1] – أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 165.

[2] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] – المرجع نفسه ، ص 168.

لست بغائب عن الله عزّ وجلّ. فقلت له : إن كنت كما تقول فمن أنا ؟ فرفع رأسه وقال أنت أخي أبو العباس الخضر. فعلمت أنّ لله عباداً لم أعرفهم[1].

– عن حمزة بن يوسف قال : سمعت أبا بكر الهمداني يقول : بقيت في برية الحجار أيّاماً لم آكل شيئاً فاشتهيت باقلا وخبزا. فقلت ، أنا في البرية وبيني وبين العراق مسافة بعيدة. فلم أتمّ خاطري إلاّ وأعرابي من بعيد ينادي : باقلا حار وخبز. فتقدّمت إليه فقلت : عندك باقلا حار وخبز ؟ فقال : نعم ، وبسط مئزرا كان عليه وأخرج خبزا وباقلا وقال لي : كل ، فأكلت. أربع مرات يقول ذلك. فقلت : بحق الذي بعثك ، إلاّ ما قلت لي من أنت. فقال : الخضر ، وغاب عنّي فلم أره[2].

– روى القشيري عن محمد بن عبد الله الصوفي عن أحمد بن الحواري قال : اشتكى محمد بن السماك فأخذنا ماءاً وانطلقنا إلى الطبيب وكان نصرانيا. فبينا نحن بين الحيرة والكوفة استقبلنا رجل حسن الوجه طيب الرائحة نقيّ الثوب. فقال لنا : إلى أين تريدون ؟ فقلنا : نريد فلاناً نريه ابن السماك. فقال : سبحان الله ، تستعينون على وليّ الله بعدو الله. ارجعوا إلى ابن السماك وقولوا له ضع يدك على موضع الوجع وقل " وبالحقّ أنزلناه وبالحقّ نزل " ثمّ غاب عنّا فلم نره. فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرناه بذلك. فوضع يده على موضع الوجع وقال ما قال الرجل. فعوفي في الوقت فقال : ذلك كان الخضر عليه السلام[3].

– عن محمد بن عبد الله الشيرازي عن أبي الحسن خير النساج عن الخوّاص أنّه قال : عطشت في بعض أسفاري وسقطت من العطش. فإذا أنا بماء رُشّ على وجهي ، ففتحت عيني ، فإذا برجل حسن الوجه راكب دابة شهباء ، فسقـــاني الماء وقال : كن رديفي.

---

[1] – أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 165.

[2] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] – المرجع نفسه ، ص 177.

وكنت بالحجاز فما لبثت إلاّ يسيراً فقال لي : ما ترى ؟ فقلت أرى المدينة. فقـــال : انزل وأقرأ رسول الله ﷺ منّي السّلام وقل أخوك الخضر يقرئك السلام[1].

والحكايات في هذا الباب تربو على الحصر والزيادة وما هذا إلاّ نزر ممّا يحكى عن الخضر عليه السلام.

كرامات كلام الجماد والحيوان :

- قال محمد بن المبارك : كنت مع إبراهيم بن أدهم في طريق بيت المقدس فنـــزلنا وقت القيلولة تحت شجرة رمّان فصلّينا ركعات ، فسمعت صوتا من أصل الرمان : يا أبا إسحاق أكرمنا بأن تأكل منّا شيئا. فطأطأ إبراهيم رأسه ، فقال ثلاث مرات. ثمّ قال : يا محمد كن شفيعاً إليه ليتناول منّا شيئا. قال فأخذ منها رمّانتين فأكل واحدة وناولني الأخرى. فأكلتها وهي حامضة وكانت شجرة قصيرة. فلمّا رجعنا مررنا بها فإذا هي شجرة عالية ، ورمّانها حلو وهي تثمر في كلّ عام مرّتين. وسمّوها رمّان العابدين ويأوي إلى ظلها العابدون[2].

- روى القشيري عن أبي حاتم السجستاني ، عن أبي نصر السراج عن الجنيد قال : دخلت على السري يوما فقال لي : عصفور كان يجيء في كلّ يوم فأفتت له الخبز فيأكل من يدي. فنـــزل وقتا من الأوقات ، فلم يسقط علي. فتذكرت في نفسي إيش السبب. فذكرت أنّي أكلت ملحا بأبزار. فقلت في نفسي لا آكل بعدها وأنا تائب منه فسقط على يدي وأكل[3].

[1] - أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 172.
[2] - المرجع نفسه ، ص 166.
[3] - المرجع نفسه ، ص 165.

كرامات متفرّقة :

- حكي عن إبراهيم الآجري قال : جاءني يهودي يتقاضى علي في دين كان له عليّ وأنا قاعد عند الأتون أوقد تحت الآجر. فقال لي اليهودي : يا إبراهيم أرني آية أسلم عليها. فقلت له : تفعل ؟ قال : نعم. فقلت : انزع ثوبك ، فنـــزع فلففته ولففت على ثوبه ثوبي وطرحته في النّار. ثمّ دخلت الأتون وأخرجت الثوب من وسط النّار ، وخرجت من الباب الآخر. فإذا ثيـــابي بحـــالها ولم يصبها شيء ، وثيابه في وسطها صارت حراقة. فأسلم اليهودي[1].

- حكي أنّ السّري لـــمّا ترك التجارة كانت أخته تنفق عليه من ثمن غزلها. فأبطأت يوما فقال لها السّري : لم أبطأت. فقالت : لأنّ غزلي لم يشتر ، وذكروا أنّه مخلط. فامتنع السّري عن طعامها. ثمّ إنّ أخته دخلت عليه فرأت عجوزا تكنس بيته وتحمل كلّ يوم إليه رغيفين. فحزنت أخته وشكت إلى أحمد بن حنبل. فقال أحمد بن حنبل للسّري فيه. فقال : لـــمّا امتنعت من أكل طعامها قيّض الله لي الدنيا لتنفق عليّ وتخدمني[2].

- عن محمد بن أحمد التميمي قال : سمعت المفتاحي صاحب سهل بن عبد الله يقول : كان سهل يصبر عن الطعام سبعين يوما ، وكان إذا أكل ضعف وإذا جاع قوي[3].

II- كرامات العصور المتأخرة :

- من كرامات الصلة بن أشيم العدوي ، كان إذا جنّ الليل خرج إلى أجمة يعبد الله فيها ، ففطن له رجل فأقام في الأجمة لينظر عبادته. فأتاه سبع فسلّم ثمّ قعد ، فقال : قم أيها السبع

[1] - أبو القاسم القشيري ، المرجع السابق ، ص 165.
[2] - المرجع نفسه ، ص 168.
[3] - المرجع نفسه ، ص 165.

فابتغ الرزق ، فتمطّى وذهب ، وإنّ له زئيراً تكاد تتصدّع منه الجبال. ثمّ قام لعبادته. فلمّا كان السَّحَر قال : اللهمّ إنّ صلة ليس بأهل أن يسألك الجنّة لكن سترا من النّار[1].

- روى أحد الأتباع قال : ذهبنا يوما لزيارة الشيخ بهاء الدين نقشبند في قصر العارفان. فلمّا رجعنا إلى بخارى كان معنا زمرة من فقرائها فتكلّم شخص منهم على الشيخ رضي الله عنه فنهيناه وقلنا له : إنّك لا تعرفه ولا يجوز لك أن تسيء الظنّ والأدب مع أولياء الله تعالى. فلم ينته فجاء زنبور ودخل فمه حالاً ولدغه. فتألّم ألما شديداً لم يستطع معه صبراً ، فقلنا له : هذا من سوء أدبك مع الشيخ. فبكى بكاءً كثيراً ثمّ تاب وأناب فبرئ في الحال[2].

- روي أنّه لمّا دخل الأمير تيمور مدينة بروسيا وأفسد التتار فيها ، استغاث الناس بالشيخ شمس الدين الحسيني البخاري وتضرّعوا إليه في دفع هؤلاء الظلمة. فقال : ادخلوا معسكره واطلبوا فيه رجلا على هيئة رثّة يصنع نعل الدّواب. فإذا وجدتموه سلّموا منّي عليه وقولوا له عني يسأل منكم الارتحال بعد هذا ، فطلبوه ووجدوه كما وصف وأوصلوا الخبر إليه فقال سمعاً وطاعة نرتحل غداً إن شاء الله تعالى[3].

- روى ابن مريم قال : ذكر لي واحد ممن أثق بهم أنّه سمع من بعض النّاس أنّه كان بتلمسان في ما تقدّم من الزمان غلاء شديد تعطّلت الصلاة بسببه في كثير من المساجد. قال فدخلت جامع الحلفاويين فوجدتُ فيه سيدي أحمد بن الحسن فقال لي : يا أخي إذا خرجت فأغلق عليّ ذلك الباب فإنّي أريد أن أنام هنا شيئاً. قال فخرجت وأغلقت عليه الباب. وأُهملَ ذلك المسجد باشتغال النّاس بأمر الجوع فبقيت مدّة طويلة حتّى فتح الله تعالى على النّاس ، فذهبتُ إلى ذلك المسجد وفتحته فلمّا دخلتُ وجدتُ سيّدي أحمد بن الحسن فيه نائماً على ما تركته. فاستفاق عند دخولي عليه وظنّ أنّه إنّما نام ساعة أو نحوها. وعرفتُ أنّ الله

[1] - يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، الجزء الأوّل ، ص 130.

[2] - المرجع نفسه ، ص 251.

[3] - المرجع نفسه ، ص 260.

سبحانه وتعالى لطف به وغيّبه عن فتنة الجوع ومشاهدة ما أحاط بالنّاس فيها كما غيّب أهل الكهف[1].

- روى الشيخ أبو بكر قال حضرت بين يدي رسول الله ﷺ ، وذلك أنّ الخضر جاءني في بعض الليالي وقال : قم يا أبا بكر. فقمت معه ، فانطلق بي حتّى أحضرني بين يدي رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ والأولياء رضي الله عنهم. فسلّمت عليهم فردّوا عليّ السلام. فقال رسول الله ﷺ : تقدّم يا أبا بكر فصلّ بنا. ثمّ قال : تقدّم فإنّ في تقدّمك سرّ الولاية ، ولتكون إماما يقتدى بك. فتقدّمت بأمر رسول الله ﷺ وصلّيت بهم ركعتين[2].

- أمر الأمير حسين أن يُجمع حطب كثير وذلك في فصل الشتاء. فلمّا تمّ ما أمر به أرسل الله في اليوم الثاني منه ثلجا عظيماً بحيث نزل أربعين مرّة. ثمّ إنّ الشيخ بهاء الدين نقشبند سافر إلى خوارزم وفي خدمته شادي. فلمّا بلغ نهر حرام أمره أن يمشي على الماء ، فخاف الشيخ شادي ، فأمره غير مرّة فلم يفعل فنظر إليه نظرة عظيمة غاب عن نفسه برهة فلمّا أفاق وضع قدمه على وجه الماء ومشى والشيخ خلفه. فلمّا جاوزاه قال : انظر هل ابتلّ شيء من خفّك أو لا ؟ فنظر فلم يجد فيه بللاً أصلاً بقدرة الله تعالى[3].

- كان للشيخ شمس الدين الحنفي جارية مباركة اسمها بركة أعتقها وكتب لها وقال : لا تخبري بذلك أحداً ، فلمّا أخبرت أهل البيت بذلك قال لها : روحي اقعدي في المكان الفلاني ، ولم تعلم ما أراد الشيخ. فجلست فيه ثمّ أرادت أن تقوم فما استطاعت. فسألت الشيخ أن يأذن لها في القيام فقامت ، لكن لم تستطع المشي. فقالت : استأذنوا سيّدي في

---

[1] - البستان في ذكر أولياء وعلماء تلمسان: أبو عبد الله محمد الملقب بابن مريم التلمساني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1986 ، ص 33.

[2] - يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، الجزء الأوّل ، ص 215.

[3] - المرجع نفسه ، ص 251.

المشي ، فقال : إنّها لم تسأل إلاّ القيام ، والسّهم إذا خرج من القوس لا يردّ فلم تزل مقعدة إلى أن ماتت[1].

- ذكر ابن مريم قال : قال لي سيدي محمد وسيدي أحمد بن الحسن : اذهب معنا على بركة الله لنحجّ. قال : فذهبتُ معهما فصرنا نطير ساعة وتطوى لنا الأرض ساعة ، وإذا جئنا إلى بحر يلتقي طرفاه فنجتازه بقدم واحدة. وقد جزنا على مصر بالليل ونحن في الهواء وهي تحتنا مملوءة بالمصابيح ، فقضينا الحجّ ورجعنا إلى موضعنا بتلمسان[2].

- ذكر الشيخ السنوسي قال : دخلتُ في يوم حرٍّ على سيدي الحسن فوجدته في تعب عظيم والعرق يسيل عليه. فقال : أتدري ممّا هذا التعب الذي أنا فيه ؟ قلت : لا يا سيدي. فقال : إنّي كنتُ آنفاً جالسا بهذا الموضع فدخل عليّ الشيطان في الصورة الّتي هو عليها ، فقمتُ إليه فهرب أمامي فتبعتهُ وأنا أُؤذّن فما زال يهربُ بين يديّ ويضرط ، كما ذُكر في الحديث ، إلى أن غاب عنّي والآن رجعتُ من اتّباعه[3].

- يروى أنّ الشيخ عبد الرحمان بن عبد الله اليمني كان لا يمسّ شيئاً من الدنيا مع كثرة عياله ، وينفق من الغيب ، فيقبض من التراب ويخرج بكفه قدر مطلوبه عددا ووزنا. وأعطى ابنه مرة قطعة حلوى من سقف البيت[4].

- يحكى أنّ الشيخ محمد هيكل المشهور بأبي راشد أخبر أنّ زوجته حضرت مرّة في عرس لبعض الأغنياء في دمشق الشام ، فرأت ما على النساء من الحليّ والحلل ، فانكسر خاطرها لفقرها ورثاثة ملابسها ولا شيء من الحليّ عليها. فحضرت إلى بيتها وهي في غاية الكدر من ذلك. فسألها عن سبب كدرها ، فأخبرته. فنام تلك الليلة فرأى النبيّ ﷺ قد أحضر من

[1] - يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 265.

[2] - ابن مريم التلمساني ، المرجع السابق ، ص 35.

[3] - المرجع نفسه ، ص 75.

[4] - يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص 358.

الحليّ والجواهر النفيسة والحلل البديعة الّتي تدهش الأبصار وتحيّر الأنظار ما لا يوجد نظيره في الدنيا ، وقال ﷺ أنّه أحضر ذلك لزوجتي فلا نبغي أن تتكدّر ، وأنّ ذلك نصيبها في الآخرة في مقابلة عدم تمتّعها بالحليّ والحلل في الدنيا. وحضرت زوجتي في المنام وألبست جميع ذلك ، ودخل عليها من السرور ما لا تقدر على وصفه[1].

- يروى أنّ الشيخ الشابي أحمد بن مخلوف حجّ هو وشيخه الشيخ عبد الوهاب الهندي. فلمّا وصلا مكّة اجتمعا برجل من الأقطاب يقال له الشيخ عبد الكبير ، وتكلّم الشيخ ، فلمّا استغرق في الكلام حانت منه إلتفاتة فإذا بالكعبة المشرفة تطوف بهم. فخاف الشيخ الهندي على الشيخ الشابي. فنهره وقال له : شابي طينة. ثمّ قال : إنّما نحن فتنة فلا تكفر. وقوله طينة ؛ يعني هذه الكعبة طينة فلا تلتفت إلى طوافها بك ، فإنّ المقصود هو الله وحده لا سواه[2].

- روي أنّ الشيخ محمد المعروف بأكال الحيّات وغيرها من الهوام كالخنافيس وما في معنى ذلك فيرى الخنافس زبيباً والحية قثاء ونحو ذلك... وكان من أكابر الصالحين ممّن تنقلب له الأعيان. وظهرت له كرامات ومكاشفات[3].

- حدث الشيخ أبو مسعود الهراس قال : كنت أقرأ في صحن جامع القرويين بفاس والمؤذّنون بالليل ، فإذا أبو عبد الله بن عباد قد خرج من باب داره وجاء يطير في الصحن كأنه جالس متربّع ، حتّى دخل البلاط الذي حول الصومعة[4].

- وأورد التاج السبكي في الطبقات أنواع الكرامات وقال : « أظنّ أنواع كراماتهم تربو على المائة وما من نوع من هذه الكرامات إلاّ وقد كثرت فيه الأقاصيص والرّوايات. ومن

[1] - يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، الجزء الأوّل ، ص 376.
[2] - المرجع نفسه ، ص 534.
[3] - المرجع نفسه ، ص 260.
[4] - المرجع نفسه ، ص 253.

هذه الأنواع : إحياء الموتى – كلامهم – انطلاق البحر وجفافه والمشي على الماء – انقلاب الأعيان – انزواء الأرض لهم – كلام الجمادات والحيوانات – إبراء العلل – طاعة الحيوانات لهم – طيّ الزمان ونشره – استجابة الدعاء – إمساك اللسان وانطلاقه – جذب بعض القلوب في مجلس كان فيه في غاية من النفرة – الإخبار ببعض المغيّبات والكشف – الصبر على عدم الطعام والشراب المدّة الطويلة – مقام التصريف – القدرة على تناول الكثير من الغذاء – الحفظ عن أكل الحرام – رؤية المكان البعيد من وراء الحجب – الهيبة الّتي لبعضهم بحيث مات من شاهده بمجرّد رؤيته – كفاية الله لهم شرّ من يريد بهم سوءاً وانقلابه خيراً – التصوّر بأطوار مختلفة – إطلاع الله لهم على كلّ ذخائر الأرض – ما سهل لكثير من العلماء من التصانيف في الزمن اليسير – عدم تأثير المسمومات وأنواع المتلفات فيهم »[1].

تجدر الإشارة فيما يخص القسم الثالث من الكرامات وهي ما تعلّقت بالعصور المتأخرة حيث ساد الانحطاط في المجتمع الإسلامي إذ انتشر الخيال في اختلاق الروايات المتعلّقة بالكرامات (وذلك لأهداف) ، تختلف عن كرامات القسم الأوّل والّتي تعلّقت بالصحابة رضي الله عنهم. وليس المهمّ مناقشة صحّة الكرامات لأنّه لم يتوصّل في فهمها ، حسب بعض الباحثين[2] إلى حكم. غير أنّ للاعتقاد فيها عزاء للفقراء فهم ينشئون لأنفسهم دنيا من المجد الموهوم يعوّضون ما ضاع عليهم من حظوظ الحياة. ومن المؤكّد أنّ هذا الاعتقاد لم يسد إلاّ في عصور الضعف السياسي والاقتصادي حيث تصبح الأمّة وهي فارغة الأيدي من سلطان الجاه والمال. وقد كان المسلمون في عصور قوّتهم لا يعرفون غير الواقع ثمّ هم في عصور الانحطاط يصدّقون كلّ شيء ويلقون زمامهم إلى كلّ مخلوق عساهم ينسون ما هم فيه من شظف العيش ونكد الشقاء.

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ص 48.

[2] – التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق : د. زكي مبارك ، ج 2 ، منشورات المكتبة المصرية ، د.ت ، ص 235.

المبحث الثالث

رؤى نقدية للكرامات

I- رؤية ابن تيمية للكرامات :

يرى ابن تيمية أنّ أهل الإلهام والخطاب والمكاشفات لم يكونوا أفضل من عمر ﷺ وليس من المحدَّثين في أمّة الإسلام أحقّ من عمر بشهادة الرسول ﷺ له. وبالرّغم من هذا سلك عمر ﷺ سبيل الاعتصام بالكتاب والسنّة. وقد نزل القرآن برأيه في أسرى بدر ، ومع هذا فقد كان يعتصم بما جاء به الرسول ﷺ ولا يقبل ما ورد عليه حتّى يعرضه على الرسول ﷺ ، وكان أبو بكر ﷺ يبيّن له أشياء خفيت عليه ، فيرجع إلى بيانه وتعليمه. وكانت المرأة تردّ على عمر ما يقوله وتذكر الحجّة من القرآن فيرجع إليها كما جرى في مهور النساء.

وأمّا الصوفية فيرى ابن تيمية أنّهم قد استغنوا بما ورد عليهم وظنّوا أنّ ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول إليهم وصار أحدهم يقول : « أخذوا علمهم ميّتا عن ميّت وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت ». فالكثير من الصوفية يتبعون ذوقهم ووجدهم وما يجدونه محبوباً عندهم بغير علم ولا هدى ، فيكونون متّبعين لهواهم ، وكان عليهم أن يعلموا أمر الله ويتبعونه وأن يستعينوا بالله ولا يعتمدون على ما أتوه من القوّة والتصرّف والحال. فإنّ هذا من الجدّ. وقد كان النبيّ ﷺ يقول عقب الصلاة : « اللهمّ لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » ؛ أي أنّ الحظّ لا ينفع صاحبه من دون الله تعالى[1].

فالخوف والوجد حسب ابن تيمية لا يرجع إلى حبّ الإنسان ووجده بحلاوته وذوقه وطعمه. وكلّ صاحب محبّة فله من محبوبه ذوق ووجد. فإن لم يكن ذلك بسلطان من الله ،

[1] – الفرقان بين الحقّ والباطل : الإمام ابن تيمية ، مكتبة النهضة ، الجزائر ، د.ت ، ص 93.

وهو ما أنزله على رسوله ﷺ كان صاحبه متّبعا لهواه. وقال الله تعالى : ﴿ ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله ﴾[1]. اتّبع ما يرد عليه من الخطاب ، أو ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبيين ، ولا يعتبر بالكتاب والسنة ، فإنّما يتّبع الظنّ وليس الحقّ. ويرى ابن تيمية أنّ هؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ما له وجود في الخارج ولا يكون موجودا إلاّ في أنفسهم كحال النائم. ولكن قد يرون في الخارج أشخاصا يرونهم عيانا ويخاطبهم أولئك الأشخاص ويحملونهم ويذهبون بهم إلى عرفات أو غيرها. ويأتونهم بذهب وفضة وطعام ولباس وسلاح وغير ذلك[2]. ومن وجهة أخرى فإنّ الصوفية لهم حسيات يرونها ويسمعونها فهم يعتمدون على الحسّ كطريق للعلم ؛ مثل السمع والبصر والمكاشفة. فقد يغلط الحسّ ، وقد يكون الغلط من صاحبه. فإنّ أداة الحسّ ترى أمراً معيّناً فيظنّ صاحبه شيئاً آخر. يقول ابن تيمية « ومن الناس من يغيب عقله وهو كالذي يرى صورته في المرآة. فإذا كان ضعيف العقل ظنّ أنّ تلك الصورة هي للشخص حتّى أنّه يتصرّف معه مثلما يتصرّف مع الشخص. وهذا يقع للصبيان والبله. كما يُخيّل لأحدهم في الضوء شخص يتحرّك ويصعد وينـــزل فيظنّه شخصاً حقيقيا ولا يعلم أنّه خيال. فالحسّ أحسّ صحيحاً لم يغلط ، لكن معه عقل لم يميّز. وإنّ العقل قد أدرك لوازم الشخص بعينه وأنّه لا يكون في الهواء ولا في المرآة ، ولا يكون بدنه في غير مكانه وأنّ الجسم الواحد لا يكون في مكانين »[3].

ويرى ابن تيمية أنّ كثيراً من الأعمال الخارقة الّتي تظهر على بعض المدّعين هي من أعمال الشياطين الّتي يُضلون بها الناس على جادة الصواب. إذ إنّ للسحرة والكهان وما تفعله الشياطين من العجائب قد تُلبّس على البعض فيحسونها من الكرامات. فمن الناس من

[1] – سورة القصص ، الآية 50.

[2] – الإمام ابن تيمية ، المرجع السابق ، ص 100.

[3] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

لا يعترض على من ادّعى الولاية حتّى ولو رأى شيئا مخالفا لما علم بالضرورة من الدين ، مثل ترك الصلاة وأكل الخبائث كالخمر والميتة وغير ذلك وفعل الفواحش والتفحشّ في المنطق وظلم الناس والشرك بالله ويظنّ أنّه وليّ من الأولياء. يقول : « فمنهم من يتعاملون مع ما يسمّى برجال الغيب من الجنّ ويحسبون أنّه إنس ، وقد يقول له أنا الخضر أو إلياس أو أنا إبراهيم أو محمّد أو المسيح أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان ممّن يحسن الظنّ بهم. وقد يطير به في الهواء أو يأتيه بطعام أو شراب أو نفقة فيظنّ هذا كرامة أو آية تدلّ على أنّ هذا من رجال الغيب أو من الملائكة ويكون ذلك شيطانا قد ألبس عليه »[1].

ويذكر ابن تيمية أنّ من المدّعين للولاية من يعلم أنّ هذا من الشيطان وأنّه من السحر وأنّ ذلك حاصل بما قاله وعمله من السحر ، وأنّ ذلك من الجنّ. ويدّعي أنّها كرامة أكرم بها بتسخير الجنّ له. يلتبس الأمر في أولئك الأشخاص بأنّهم آدميين أو ملائكة ، وقد لا يعرفونهم فيسمونهم رجال الغيب أو الخضر أو إلياس أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان. فيغلط العقل حيث لم يدرك أنّ هذه شياطين تمثّلت في صور هؤلاء. يقول ابن تيمية : « وكثير من هؤلاء يظنّ أنّ النبيّ ﷺ نفسه أو غيره من الأنبياء أو الصالحين يأتيه في اليقظة. ومن يرى ذلك عند قبر النبيّ ﷺ أو الشيخ ، وهو صادق في نعته. لكن غلط حيث ظنّ صدق أولئك. والذي له عقل يعلم أنّ النبيّ ﷺ ما كان يأتي أحداً من أصحابه بعد موته في اليقظة ، ولا كان يخاطبهم من قبره فكيف يكون لغيرهم ؟ »[2].

تضليل الشياطين للإنسان :

يرى ابن تيمية أنّ الشياطين يأتون الشخص في النوم ، فيقول أحدهم أنا أبو بكر الصدّيق وأنا أتوّبك وأصيّرك شيخاً وأنت تتوّب الناس ويلبسه فيصبح وعلى رأسه ما ألبسه. فلا يشكّ أنّ الصدّيق هو الذي جاءه ولا يعلم أنّه الشيطان. وقد جرى مثل هذا لعدّة من

[1] – الإمام ابن تيمية ، المرجع السابق ، ص 93.

[2] – المرجع نفسه ، ص 100.

المشايخ بالعراق والجزيرة والشام. وتارة يقصّ شعره في النوم فيصبح ويجد شعره مقصوصاً. وتارة يقول له أنا الشيخ فلان ، فلا يشكّ أنّ الشيخ نفسه جاءه وقصّ شعره. وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحيّ أو الميّت فيأتونه في صورة ذلك الشيخ ، وقد يحفظونه ممّا يكره، فلا يشكّ أنّ الشيخ نفسه جاءه أو ملكاً تصوّر بصورة وجاءه. ولا يعلم أنّ الذي تمثّل له إنّما هو الشيطان. وتارة تأتي إلى من هو خال في البرية ، وقد يكون مَلِكاً أو أميراً كبيراً ويكون كافراً وقد انقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت. فيأتيه في صورة إنسي ويسقيه ويدعوه إلى الإسلام ويتوّبه فيسلم على يده ويطعمه ويدلّه على الطريق ويقول من أنت ؟ فيقول أنا فلان[1]. ويذكر ابن تيمية أنّه وقع له مثل هذا فيقول : « كنت في مصر في قلعتها وجرى مثل هذا إلى كبير من الترك من ناحية المشرق (أي انقطع عليه أصحابه) وقال له ذلك الشخص أنا ابن تيمية فلم يشكّ ذلك الأمير أنّي أنا هو. وأخبر بذلك ملك ماردين ، وأرسل بذلك ملك ماردين إلى ملك مصر رسولا وكنت في الحبس. فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنيا يحبّنا. قال لي طائفة من الناس فلِمَ لا يجوز أن يكون ملكا. قلت لا ، إنّ المَلَكَ لا يكذب. وهذا قد قال أنا ابن تيمية وهو يعلم أنّه كاذب في ذلك »[2].

ويذكر ابن تيمية أنّ الذين كانوا يعتقدون بقاء علي أو بقاء محمد بن الحنفية ، إنّما كان يأتي إلى بعض أصحابهم جنّي في صورته. وكذلك منتظر الرافضة قد يراه أحدهم ويكون المرئي جنيّا. ويقول : « فهذا باب واسع واقع كثيرا. وكلّما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر. ففي المشركين أكثر ممّا في النّصارى ، كما هو في الداخلين على الإسلام »[3].

[1] الإمام ابن تيمية ، المرجع السابق ، ص 116.

[2] – المرجع نفسه ، ص 117.

[3] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

ويردف ابن تيمية القول : إنّ كثيرا من الناس من رأى من يقول له أنا الخضر وإنّما كان جنّياً. فمنهم من يقطع بحياة الخضر ، ومنهم من ينكر بقاءه ، وكلا الطائفتين مخطئ. فإنّ الذين رأوا من قال أنّي أنا الخضر هم كثيرون صادقون. والحكايات متواترات ، لكن أخطؤوا في ظنّهم أنّه هو ، إنّما كان جنياً. ومثل هذا يجري لليهود والنّصارى ، فكثيرا ما يأتيهم في كنائسهم من يقول إنّه الخضر. وفي ذلك من الحكايات الصادقة كثيرة ، تبيّن صدق من رأى وظنّ أنّه الخضر وإنّما كان جنّيا. ومن ذلك ضلّت النصارى لمّا اعتقدوا أنّ المسيح بعد أن صلب حسب ظنّهم أتى إلى الحواريين وكلّمهم ووصّاهم ، إنّما كان وهْمُ شيطان ؛ إذ لم يُرفع المسيح حتّى بلّغ رسالات ربّه. وأصحاب الحلاّج لـــمّا قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج فيرونه في صورته عياناً. وشيخ بمصر يقال له الدسوقي بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة. وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله ، فرأيته بخطّ الجنّ غير مرّة وفيه كلام من كلام الجنّ[1].

الجنّ مكلّفون مثل الإنس ويستمتع بعضهم ببعض :

يرى ابن تيمية أنّ الجنّ مأمورون ومنهيون كالإنس. والله تعالى قد بعث الرسل من الإنس إليهم وإلى الإنس وأمر الجميع بطاعة الرسل فقال تعالى : ﴿ يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرّتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربّنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا قال النار مثواكم

[1] – الإمام ابن تيمية ، المرجع السابق ، ص 119.

[2] – سورة الأنعام ، الآية 130.

خالدين فيها إلاّ ما شاء الله ﴾[1]. يقـــول ابن تيمية : « قـــال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ استكثرتم من الإنس ﴾ أي أغويتم وأضللتم كثيرا من الإنس. واستمتاع الإنس بالجنّ بما كانوا يلقون لهم من الأراجيف والسحر والكهانة ، واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزيّنون لهم من الضلالة والمعاصي وهو طاعة بعضهم لبعض وموافقة بعضهم بعضاً. وقال بن السائب : استمتاع الإنس بالجنّ استعاذتهم بهم ، واستمتاع الجنّ بالإنس أن قالوا قد أسرنا الإنس مع الجنّ حتّى عاذوا بنا فيزدادون شرفا في أنفسهم وعظما في نفوسهم. في الجملة استمتاع الإنس بالجنّ والجنّ بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس »[2].

وأمّا في طريقة استمتاع الإنس بالجنّ فيرى ابن تيمية أنّ الجنّي يأتي الإنسان بما يريد من صورة أو مال أو قتل عدوّه. وأمّا الإنس فتطيع الجنّ ؛ فتارة يسجد له وتارة يسجد لما يأمره بالسجود له. والجنيات منهنّ من يريد من الإنس الذي يخدمنه ما يريد نساء الإنس من الرجال. ومن استمتاع الإنس بالجنّ استخدامهم في الإخبار بالأمور الغائبة كما يخبر الكهان. فإنّ في الإنس من له غرض في هذا لما يحصل له من الرياسة والمال. والشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق ولهم لذّة في الشرّ والفتن ، يحبّون ذلك وإن لم يكن فيه منفعة لهم[3].

ويذكر ابن تيمية أنّ الفلاسفة ونحوهم ممّن لا يعرف الجنّ والشياطين لا يعرفون هذه الظاهرة ، وإنّما يعرفون الشهوة والغضب الذيْن خلقا لمصلحة ومنفعة عند الاعتدال فيها. وأمّا الشيطان فيأمر بالحسد ، والحاسد لا ينتفع بزوال النعمة من المحسود. ومن استمتاع الإنس بالجنّ استخدامهم في إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب وغيره. فقد يأتون ببعض ذلك وقد يدلّونه على كنـــز غيره. فتارة يتمثّل الجنّ في صورة الإنسي ، فإذا

[1] – سورة الأنعام ، الآية 128.

[2] – الإمام ابن تيمية ، المرجع السابق ، ص 106.

[3] – المرجع نفسه ، ص 107.

استغاث به بعض أتباعه أتاه ، فظنّ أنّه الشيخ نفسه. وتارة يكون التّابع قد نادى شيخه وهتف به يا سيّدي فلان ، فينقل الجنّي ذلك الفلان إلى الشيخ بمثل صوت الإنسي حتّى يظنّ الشيخ أنّه صوت الإنسي بعينه. ثمّ إنّ الشيخ يقول نعم ، ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه. فيأتي الجنّي بمثل ذلك الصوت والفعل فيظنّ ذلك الشخص أنّ شيخه نفسه الذي أجابه. حتّى إنّ تابع الشيخ قد تكون يده في إناء يأكل فيضع الجنّي يده في صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام ، فيظنّ ذلك التابع أنّ شيخه حاضر معه ، والجنّي يمثّل للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء فيضع يده فيه حتّى يظنّ الشيخ أنّ يده في ذلك الإناء فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أنّ يده كانت في الإناء فيصدّقه ويكون بينهما مسافة شهر. والشيخ في موضعه لم يتحرّك ويده لم تطل. ولكن الجنّي مثّل للشيخ ومثّل للمريد حتّى ظنّ كلّ منهما أنّ أحدهما عند الآخر[1].

وإن كانت رؤية ابن تيمية حسب اعتقادنا لا تصدق على أنواع الكرامات الّتي أكرم بها بعض الصحابة رضي الله عنهم لكمال استقامتهم مع الله واتّباعهم المطلق لرسول الله ﷺ ، فقد تصْدُق هذه الرؤية على الصنف الآخر من الكرامات والّتي رُويت وتعلّقت بالعصور المتأخرة. يرى جيب أنّ المتصوفة المتأخرين قد مهّدت تصرفاتهم لانبعاث العقائد القديمة الّتي قاومتها السنة في الماضي ، وأخذت تمتزج بالعلوم السرية الّتي تناقض ما أراد الرسول ﷺ مقاومته بفكرة إلـه متعال عن الكون ، وبذلك تسرّبت طائفة من الأفكار الّتي تهدف إلى هدم القيم الدينية. إنّ ظاهرة عبادة الأولياء تحت ستار التصّوف قد أعادت الارتباط القديم بين الدين والسحر. ولمّا تمّ ذلك أصبح من المتعذّر الحيلولة دون نفوذ إلى مستويات أدنى فأدنى. وصارت العرافة والسحر وسائر مستلزمات الغش والخداع وسيلة تدرّ

[1] – الإمام ابن تيمية ، المرجع السابق ، ص 108.

الرزق على عدد كبير من الدّراويش. ويكون من العسير التمييز في بعض الأحيان بين اختلاط مذهب الدراويش الشعبي الحديث والفكر الجاهلي القديم[1].

أصبح الفكر الصوفي في معظمه في عصور انحطاط الأمة العربية والإسلامية فكرا خرافيا في أشكاله التجارية المنحطّة. وأصبح هدفه هو تحويل النّاس من عبادة الله الّتي هي الصورة العليا للحرية إلى عبادة الأشخاص الّتي هي الصورة المنحطة للعبودية. يقول عبد الله شريط في هذا الصدد : « إنّ عقول مجتمعاتنا اليوم ومنذ عصر ابن خلدون ، تزخر بهذا الفكر الخرافي الذي كان نتيجة مباشرة للفكر الصوفي. وأدبنا اليوم في المشرق والمغرب يحاول أن يعالج مساوئ هذا الإرث المسموم في عقول الشعب فلا يشقّ طريقه إلاّ بصعوبة. ورجال الدين أنفسهم أو بعضهم قد هالـــهم ما أصبحت عليه شعوبـــهم »[2].

إنّ التصوّف قد دخل في هذه العصور المتأخرة في مرحلة من الغلو والشذوذ في الفكر الديني ، وما يصاحب ذلك من استغلال مَوَاطن الضعف البشري. وهو لم يقترفه بعض المشعوذين فقط ، بل اقترفته حتّى بعض الفرق. وأصبح التصوّف وما يتّصل به من ظاهرة الكرامات ينتظم أتباعا وجماعات مع ما أصبح فيه من انحراف ، نحو التمكين لسلطة روحية تتمثّل في سلطة الشيخ ودعوة إلى التعلّق بالأشخاص أكثر من التعلّق بالمذاهب والأفكار. وعادت إلى الظهور سلطة الوساطة بين الله والإنسان وما يتبع ذلك من ظاهرة الأولياء[3].

II- رؤية الأنثروبولوجيين للكرامات :

يعتقد الأنثروبولوجيون أنّ الكرامات تعتبر من جملة التقاليد الّتي هي مجموعة من الأفكار والعادات الفردية والجماعية الّتي يسير على نهجها شعب من الشعوب ويتوارثها أفراده جيلاً عن جيل.

[1] – د. عبد الله شريط : الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص 512.

[2] – المرجع نفسه ، ص 523.

[3] – المرجع نفسه ، ص 507.

ويعتقد بعضهم أنّ كافة الأفعال الصّادرة عن العادات والتقاليد الجماعية كان منشؤها أفعالٍ تعبّدية وكان ينظر إليها أنّها من السّنن الّتي قرّرها الآلهة. كما يرى بعض الباحثين أنّ وظيفة العادة الجماعية تعتبر وراثة اجتماعية تشبه كيفيات الفعل الغريزي. فالسلوكات ترجع إلى السلالة والجنس ويؤدّيها الفرد دون إجراء أيّة عملية عقلية. ومن هذه المعتقدات الشعبية الإيمان بالكرامات الحسية ، وهي معتقدات يؤمن بها الشعب فيما يتعلّق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي. وهذا المعتقد قد ينبع عند نفوس أبناء الشعب عن طريق الكشف أو الرؤية أو الإلهام. وقد تكون معتقد ديني تمّ تحويله في صدور الناس إلى أشكال جديدة بفعل التراث القديم الكامن على مدى الأجيال ، فلم يعد معتقدا دينياً رسمياً ولا يحظى بقبول السلك الديني الرّسمي. وقد يسمّى هذا المعتقد خرافات أو خزعبلات لأنّه يدور حول الموضوعات الغيبية ولا يتّفق مع تعاليم الدين الرسمي.

وخاصية هذا المعتقد أنّه خبيء في صدور الناس وهو يختمر ويتشكّل بصعوبة ، يلعب فيه الخيال الفردي دوره ليعطيه طابعاً خاصاً. وهو متمكّن في أعماق النفس الإنسانية، قد يوجد حتّى عند المثقفين أو الذين بلغوا مرتبة عالية من العلم والثقافة ، ولو صاروا يخضعون في حياتهم وفكرهم للإسلام العلمي. وثبت من خلال الدراسات وجوده ، وسائر المعتقدات الشعبية وبدرجات متفاوتة ، عند كافة الطبقات الاجتماعية وعلى جميع المستويات.

وقد يؤكد الاعتقاد في الكرامات ما يسمّيه بعض الباحثين بالمواقف الأساسية العامة ، ووجوده شكل أساسي من أشكال الفكر شائع بين النّاس ، وذلك بسبب الوحدة النفسية بين البشر. فبعض النظائر الثقافية توجد في مختلف أنحاء العالم.

وكان الإنسان البدائي يتوسّل إلى القوى العليا كالآلهة أو الشياطين أو الفتش Fétiche عن طريق الصلاة. ويتوسّل إليها بواسطة الأضاحي والقرابين كما يتوسّل إليها بالنذور والحجّ والزيارة. ويستعين بها على البركة ولتحقيق أغراض من العمليات السحرية الّتي يمارسها. ويعرف التراث السحري آلاف الصّيغ والدعوات للعن القوى الشريرة أو

استرضاء القوى الخيرة ، واستخدم الأحجار والنباتات والحيوانات والنّجوم والأشكال والصور والكلمات والتراتيل للتأثير فوق الطبيعي على تلك القوى فوق الطبيعية وإخضاعها لإرادته.

ويجدر التساؤل عن ظروف العصر الذي ظهرت فيه هذه المعتقدات والمعـــارف الشعبية ؛ أي الاعتقاد في الأولياء والتبرّك بهم بحيث يذهب بعض الباحثين إلى أنّ هذه المعتقدات هي القوى المحرّكة الّتي تكمن وراء كلّ الأفعال الاجتماعية الّتي يأتيها الفرد منفرداً مع نفسه أو مجتمعاً مع النّاس. ويمكننا أن نعثر على معتقد أو تصوّر معيّن يكون وراء كلّ جزئية من جزئيات السّلوك في أي ميدان من ميادين النشاط الإنساني. ويستطيع الباحث لمس ذلك من خلال دراسة الحكايات الشعبية ، واستخراج الأنواع الاعتقادية المختلفة ، مثل تصوّر كرامات الأولياء.

ولا شكّ أنّ الذاكرة الشعبية المتشبّعة بهذه المعتقدات القديمة صهرت في مخيّلتها هذه التجربة واحتوتـــها لتعبر انطلاقاً منها عن تصوّراتـــها. فالمتخيّل العربي الإسلامي يلمس ذلك الحضور الفاعل للاعتقادات الّتي تعمل بشكل خفيّ. فهناك حقيقة عميقة وتعبر عن نفسها عبر الممارسات الّتي تصدر عما يسمّى بالدين الشعبي ؛ أي العجيب الساحر والخارق للطبيعي والخرافات والأساطير والبقايا العتيقة الّتي تشكّل المتخيّل وتعيش إلى جانب الديني الرسمي. والمتخيّل الإسلامي يتجلّى في الخطاب الصوفي من خلال الكرامة الّتي تقوم بامتصاص وتمثّل لكثير من الترسّبات الدينية والاعتقادية القديمة. ويعيش التصوف الشعبي حالة خطر لأنّه امتص حالات الرفض والتمرّد على المؤسسات الرسمية (الدينية والسياسية).

ويرى الأنثروبولوجيون أنّ أغلب نصوص التصوف انتقلت إلينا عن طريق الحكاية الشفوية ، وحتّى الّتي انتقلت في الكتب فهي مرتبطة بالتصور الشفوي. والمعرفة الصوفية تختلف عن تلك الّتي تقوم على المنطق والعقل. فالتصوف مغـــامرة ذوقية كشفية ، أداة المعرفة فيها القلب وليس البـــرهان والدليل ردّا أو قبولاً. والفرق بين المنهجين أي المعرفة

الصوفية الوجدانية والمعرفة العلمية المنطقية ؛ أنّ إدراك القلب هو معرفة مباشرة واتّحـــاد بين العـــارف والمعروف ، وهي تجربة ومشاهدة لا تُكتسب بالتعلّم وإنّما بالإلهام والكشف. وهي حنين للاتصال بالمطلق ، وتستعمل الرمزية للتعبير. وهو تعبير يخاطب القلب فقط ، وما يستجيب في النفس للسّحر وكلّ ما هو خرق للعادة والمألوف. ولا تتمّ إلاّ إذا زال وعي الصوفي وهذا عن طريق الفناء وهو غيبة عن الأشياء وبه يكتنف الصوفي الوجود بالمكاشفة والتجلّي والمشاهدة و الشطح والتعبير الأسمى عن الحالة الّتي تسلب وتخطف الصوفي.

والرواية الصوفية حسب هذا المنظور الأنثروبولوجي ترى أنّ الأشياء موجودة مجازياً. فهي مظهر لعلاقات خفية لا مرئية. وترى الوجود سرّاً وليس مشكلة كما يراه العقل. ويرى بعضهم أنّ أكثر حالات الصوفي مرتبطة باللاشعور وأكثرها انفعالية (passive) يفقد فيها إرادته ويشعر أنّه معتقل بقوّة عليا. وهي حالات وقوفية Nature transitaire ؛ أي حالات غالباً ما تفشل الذاكرة في وصفها بعد أن تنتهي. فالتجربة الصوفية مشحونة باللامعقول والغريب. وهي من طور لا يدركه العقل والمنطق[1].

والمشاهدة إنّما هي تَمَثُّلٌ ذاتي خالص من تمثّلات اللاشعور ويكون الإطلاع على العوالم الفوق طبيعية حسب طاقات هذا التمثّل. ومن هنا يفتح الخيال مع الاستعدادات النفسية المكتسبة للمريد عوالم مجهولة وغامضة، وذلك من خلال السفر الروحي الذي يقوم به والرياضة الّتي يَعْبُر من خلالها المقامات والأحوال.

والمعجزة ، وإن تختلف عن الكرامة إلاّ أنّهما يشكّلان نمطاً معرفياً يقوم على أساس الخارق ؛ أي تجاوز العادي والقفز على قوانين الزمان والمكان. وتبقى درجة هذا التجاوز خاضعة للمقام والحال.

[1] – حكيم ميلود ، المرجع السابق ، ص 79 وما بعدها.

والأولياء إنّما يحصلون على تصديق المسلمين لهم باستنادهم إلى المرجعية القرآنية والنبوية ، وهذا يعني الاندراج وعدم الخروج عن هذا الميراث الذي أيقظ عاطفة المسلمين. والكرامة ليست هي الدين ، وليست منه ، وإنّما ارتباطها الوثيق بالدين وارتكاز صاحبها على سلطة نصوصه المقدسة ووظيفتها النفسية والاجتماعية هي الّتي تُهيّأ الذهن والسّلوك لتقبل الكرامة.

واستثمر الصوفية هذه المرجعية لتأكيد قدرة الوليّ الذي يسعى إلى تملّك قدرة الله ، ويقتفي أثر وخصائص النبيّ ، وذلك بتكراره المعجزة في الكرامة الّتي تؤسّس النبوة وتكرّرها، ليبلغ الكمال وليصل إلى درجة الكشف لينعم برؤية العوالم العلوية ويتحكّم في العوالم الدنيوية.

وحسب الباحثين الأنثروبولوجيين فإنّ البطل الصوفي تحرّكه الرّغبة في الخلود وتحقيق القفز على شرطه البشري. لهذا تتقاسمه عدّة نزعات. والوليّ هو إنسان ونبـــيّ ونصف إلـــه في وقت واحد. فهو يتماثل ويتفارق ، ويتبنّى هوية الإنسانية العادية وهوية اللاعادية في آن واحد. وليس هناك تناقض ولكن هناك مزج بينهما. والوليّ يطرح نفسه بين الدنيوي والمقدّس في وحدة متوتّرة. وهو يتحوّل إلى بؤرة توتّر بين الأبدي والفاني ، يكتسب قدرات خارقة تخلق توازنه لذاته وللمجتمع الذي ينظر إليه كما ينظر للقدسي الممثل في الله والنبيّ[1].

وسيرة الوليّ وكراماته يمكن أن يدرجا ضمن منظومة القصص الديني والأنبيائي ؛ إذ البطل هنا وهناك خارق بقدراته وسلوكه ، يهدف إلى هداية الناس وينتصر على كلّ المعوّقات. والوليّ هو قربان وأضحية البحث عن الخلود ، وعن ألوهية مفقودة ، وحنين ملحّ لكمال سابق ؛ وهذا لا يتمّ إلاّ بالتّمثّل المحوّل لمسلكية النّبـــيّ. والتصوّر الذي يعتمده الوليّ هو المتشرب بالمعتقدات الشعبية. والكرامة تستمدّ جذورها من المعجزات ومن المعتقدات

[1] – الميلودي شغموم : المتخيّل والقدسي في التصوّف الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 196.

والمزاعم الشعبية الّتي تشبّعت بكثير من الإسرائيليات ومن الإضافات الّتي أُدخلت على السيرة النبوية وحياة الصحابة. والوليّ هو نموذج فوق- بشري أوجدته الذات العربية لتعرِض الوضع المتخلّف واليائس الذي تعيشه حتّى لو كان ذلك في الحلم والخيال.

III- رؤية بعض المثقفين المحدَثين للكرامات :

قد يرى بعض الباحثين المحدثين أنّ من علامات الوليّ أن يكون سلبيا في الحياة ، ولا تبدو منه بادرة كردّ فعل لما يحسّ به ، إن كان يُحسّ ، أو يلاقيه في الحياة من الناس. وإنّ مظهر الفناء إنما هو إهلاك للنفس في بشريّتها وحيوانيّتها ووضعها في مصاف الجمادات. وتصرّف الوليّ ليس عن إرادته وإنّما هو جبر واضطرار. فالفناء يسلبه الاختيار والحرية في التصرف ويخرجه من تدبيره إلى تدبير غيره... فمن شأن طريق الصوفية عامة أن ينتج الشخص البعيد عن الله وعن المجتمع[1].

ويذهب البعض الآخر إلى أنّ الوليّ يحاول في نشاطه أن يحاكي النبيّ ويقلّده في جميع شؤونه. ويسعى الوليّ أن يكون أسوة وأن يكون له أتباعا ومريدين لتقوية جانب النموذجية فيه. والأولياء يملكون سرّاً خاصاً لا يمكن لأحد من النّاس العاديين تحمّله ، ويتجاوزون النبوة وقد يتجاوزون الألوهية كما تجاوزها إبليس ؛ إذ توجد نصوص كثيرة تربط بين المتصوفة الذين يصلون إلى هذه الدرجة من الولاية وإبليس. وذلك في مسألة تصوّر الله. ويمكن أن تتضخّم عقدة العارف ليجعل مكانه مكان إلـــه. وتجاوز الإلهية يتجلّى في أعلى صوره في الحكايات الّتي تتحدّث عمّا يسمّى بشطحات الصوفية حيث يرفع الوليّ كلّ ما يقطعه عن الله ، يتّصف بصفاته ، ويحلّ محله. وهذا التجاوز هو رفع الحدود بين الخالق

[1] - إبراهيم إبراهيم هلال : ولاية الله والطريق إليها ، المرجع السابق ، ص 67.

والمخلوق. والإبليسية هي النـــزوع إلى المكبوتات والممنوعات عقلا وشرعا في الثقافة العربية الإسلامية[1].

إنّ هذه الرؤية إن كانت صادقة فقد تصدق على فترة من الفترات الذي مرّت بها المجتمعات الإسلامية حيث خبـــى فيها التوهج الروحي للعنصر البشري. وبَـــهت فيها الوجه الناصع لمن تزيّ بالولاية. فابن خلدون لا يذهب هذه الوجهة السالفة إنّما هو يقرّر أنّ « الوليّ في مرحلة من مراحل مجاهدته يصبح في حالة نفسية يتبعها غالباً كشف حجاب الحسّ والإطّلاع على عوالم من الله ليس لصاحب الحسّ إدراك شيء منها. ففيها تضعف أحوال الحسّ وتقوى الروح بواسطة الذكر الذي هو كالغذاء لتنمية الروح. ولا يزال هذا الكشف في نموّ وتزايد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً. وتقترب النفس من الأفق الأعلى فَـــيُكشف لأصحابـــها من حقائق الوجود ما لا يدركه سواهم. وإذا حصّلوا ذلك زعموا أنّ الوجود قد انحصر في مداركهم. وبما أنّ هذه المدركات عندهم تتّصل بحقائق العلويات فإنّ تعبيرهم عنها يكون بنوع من المتشابه لما أنّه وجداني ، واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم ، لأنّها لم توضع إلاّ للمعارف وأكثره من المحسوسات. وأمّا الألفاظ الموهمة الّتي يعبّرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بـــها أهل الشرع ، فالإنصاف في شأن القوم أنّـــهم أهل غيبة عن الحسّ ، والواردات تملكهم حتّى ينطقوا بما لا يقصدونه. على أنّ الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً إلاّ إذا كان ناشئا عن الاستقامة ، لأنّ الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة. ونظرا لكون هذه الأمور من قبيل الوجدانيات فإنّ البرهان والدليل ليس بنافع فيها ردّاً أو قبولاً »[2].

وحسب تصوّرنا فالوليّ لا يكون سلبيا في الحياة. وهذا ما نلاحظه من خلال المهمة الّتي أوكلت إليه ، فمهمّته الخدمة ، وهي العبادة التامة لله وأقصاها الفناء فيه. يقول ابن

[1] – الميلودي شغموم ، المرجع السابق ، ص 198.

[2] – د. عبد الله شريط ، المرجع السابق ، ص 503.

عطاء الله : « قد محق الله أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه. وحمّلهم من الأسرار ما يعجز عامة المؤمنين عن سماعه. فالفناء عن الله هو بقاء به. ومن صدق فناؤه صدق بقاؤه ، ومن كان في الله تَلَفُه كان على الله خَلَفُه »[1]. فمن نتيجة الفناء في الله الحضور معه في كلّ شيء. وإلى جانب هذا « فقد يقيمه الله بالدعوة إليه. فيُظهرهُ الله إلى العباد ويُلبسه الجلالة والمهابة ليعظّمه النّاس ، فيقفوا عند حدود الأدب معه. ويجعل في قلوبهم الهيبة له فينصره الله بـــها فيكون أمره مسموعا ونهيه. فقد أظهر عليهم إجلال عظمته ، كلّما نزلوا أرض العبودية رفعهم إلى سماء الخصوصية »[2].

ويكون الوليّ مشحوناً بالعلوم والمعارف والحقائق حتّى إذا أعطاه الله العبارة كان كالإذن منه له في الكلام. ومن أذن له الله في التعبير تهيّأت في مسامع العباد عبارته وجليت لديهم إشارته.

ويؤكّد ابن عطاء الله أنّ ظهور الوليّ ووعظه للناس ليس بإرادته وبنفسه ولها ، ولكن بتشريف الله له وإن كان مطلب الوليّ هو الخفاء لا الجلاء. قال أحد الأولياء : « والله ما جلست للناس حتّى هدّدت بالسلب ، وقيل لي : لئن لم تجلس لنسلبنّك ما وهباك »[3].

ولنصغ إلى قول ابن عطاء الله وهو يبيّن مهمّة الوليّ التعليمية فيقول : « إنّما يكون الإقتداء بوليّ دلّك الله عليه ، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه. فطوى عنك شهود بشريّتك في وجود خصوصيته. فألقيتَ إليه القياد ، فسلك بك سبل الرّشاد يعرّفك برعونات نفسك وكمائنها ودفائنها ويدلّك على الجمع على الله. ويعلّمك الفرار عمّا سوى الله ويسايرك في طريقك حتّى تصل إلى الله. ويوقفك على إساءة نفسك ويعرّفك إحسان الله إليك. فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها ، وعدم الركون إليها. ويفيدك العلم

[1] – ابن عطاء الله السكندري : لطائف المنن ، المرجع السابق ، ص 26.

[2] – المرجع نفسه ، ص 40.

[3] – المرجع نفسه ، ص 96.

بإحسان الله إليك الإقبال عليه والقيام بالشكر له والدوام على ممرّ الساعات بين يديه »[1].
فإن كانت محاكاة من الوليّ للنبيّ فإنما تكون في هذه المهمّة التعليمية الراقية.

قد نجد بعض الممارسات لأدعياء الولاية في الحكايات المتحدّثة عنهم تثير غضب المثقّف نظرا لما فيها من " إبليسية " فيُصدر أحكاماً. يقول أحدهم : « إنّ الوليّ هو الشخصية الّتي استطاعت أن تقبل تفرّدها المتوحش أو عزلتها القاسية من أجل أن يتجلّى فيه ذلك " المتفرّد " أو " المتميّز " المفارق لكلّ ما هو طبيعي وهو حلول " القدسي " في الشخص ، وهو عنف ما فوقه عنف. إنّه العنف الذي يفصل الشخص عن محيطه الطبيعي ويعزله عن أولئك الذين يعيشون حالة طبيعية. فهذا العزل تقديس ولكنّه تدنيس ، تدنيس للطبيعي في الشخص. ولا يمكن للمرء أن يعيشه إلاّ كمرض. إنّ ترقية الشخص إلى اللاطبيعي مساس في الطبيعي فيه ، تعطيل له أو تكسير. ولهذا يظهر الوليّ بصورة معوّق. إنّه شخص برغم طبيعته فاقد لما هو طبيعي بل هو فقير إلى إرادته ، إلى تلقائيته البشرية وإلى حريته الخاصة كبشر »[2].

فمهمّة الوليّ حسب هذه الرؤية هي نشر " القدسي " والسّهر على استمراره حاضرا في الدنيوي ، إنّه المعيد لخلق القدسي والمحافظ على استمراره وحضوره الدائم في الكون بواسطة مجموعة من الخوارق تسمى الكرامات. ويذهب بعضهم إلى القول : « هذا هو الوليّ ، شخص ماكر متواطئ مع قوى الشر ، ولكنّه الدّواء ضدّ هذه القوى وهذا الشرّ ، وهذه هي بركته. إنّها قوّة يمكن أن توجّه إلى الأتباع الأوفياء من أجل جلب الخير لهم ، ويمكن أن توجّه ضد الأعداء لتسلّط الشرّ عليهم. ولكنّها ماكرة ومزدوجة الطبيعة كالوليّ. إنّ موقف السلامة إنّما يكمن في التسليم بكراماتهم والإيمان بخوارقهم[3].

[1] – ابن عطاء الله السكندري ، المرجع السابق ، ص 48.
[2] – الميلودي شغموم ، المرجع السابق ، ص 212.
[3] – المرجع نفسه ، ص 216.

وهذا الموقف تجاه الوليّ وبهذا الحكم لا يمكن أن يتطابق مع الأوصاف الذي وضعها المختصّون في هذا المجال ؛ إذ أننا نجد من أوصافه ما أذهل العقل. فمن أصناف الأولياء ما اصطلح عليه الدارسون " بالعارف " ، وهو شخصية متميّزة وراقية. وقد وصف ابن عطاء الله السكندري أنّ « العارفين تصير الحضرة معشش قلبهم يأوون إليها وفيها يسكنون. فإنّ نزلوا إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرّسوخ في اليقين. فلم ينـــزلوا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة ولا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، بل يكونون في ذلك بآداب الله وآداب رسوله وأنبيائه متأدّبين وبما اقتضى منهم الحقّ عاملين »[1].

إنّ هؤلاء العارفين يتميّزون عمّا يشاكلهم في العبودية من زهاد وعباد بصفات خاصة. فإذا كان خوف هؤلاء وعامة المؤمنين على أنفسهم من النّار ذلك أنّ بصائرهم لم تنفذ إلى شهود نِعَم الله عليهم من إيمان وإسلام ومعرفة وتوحيد ، علموا أنّ الله تعالى قد توعّد أهل المعصية بالعقوبة. وأمّا العارفون بما وهبهم الله من نوره وعرّفهم نعمَهُ فعملوا على صيانتها ونـــهضوا له بالوفاء. فإنّهم إذا خُوّفوا بالوعيد رجوا. فهم يعلمون أنّ من وراء ما خوّفوا به ، أوصاف الله الذي لا ينبغي أن يقنط من رحمته. وعلموا أنّ ما خوّفهم إلاّ ليجمعهم عليه ويردهم بذلك عليه. وهم مع ذلك يخافون غيب المشيئة وأنّ ما أظهر الله لهم من الرّجاء اختبار لهممهم[2].

تبيّن من خلال هذا الوصف للعارفين أنّ أرواحهم مرحة وسلوكهم معتدل وأنّهم بين جناحي الخوف والرجاء ، فلا إفراط ولا تفريط. وإذا كان الزهاد والعبّاد عاينوا ثقل ما حمّلهم الله من التكاليف الشرعية فلزمهم الحزن ، نجد أنّ العارفين بالله يعلمون أنّهم حمّلوا من التكليف ما أشفقت السماوات والأرض والجبال من حمله ، إلاّ أنهم « نفذوا إلى مشاهدة لطف الله الحامل للأثقال عن عباده المتوكّلين عليه معتمدين على حنان الله في قوله

[1] – ابن عطاء الله السكندري ، المرجع السابق ، ص 131.

[2] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

تعالى :﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[1] ، وقوله : ﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ﴾[2].

فرجعوا إلى الله بصدق الرجعى فحمل الأثقال عنهم ، فساروا إليه محمولين في محفّة المنن مروَّحٌ عليهم بنفحات اللطف[3].

من خلال هذا يتّضح أنّ الوليّ ليس كما يظنّه من وصفه بالازدواجية والإبليسية وغير ذلك. فالعارف ليس سلبيا في الحياة وإنّما هو شخص يشارك الناس دنياهم ، ولكن بمراعاة الأدب. يقول ابن عطاء الله : « العارف قد وسعته المعرفة وهو ذو بصيرة منيرة تَكَشّف له ما غطّي عن الوارع. فقد يمدّ يده إلى الطّعام لعلمه بحلّه وسلامته من الشبهة. فربّما مدّ العارف يده إلى ما قبض المستورع يده عنه »[4]. ويمكن توسيع مصطلح الطعام إلى جميع مجالات الحياة. فالعارف لا يغيب عن الكون وعن دنيا الناس. يقول ابن عطاء الله : « من غاب عن الكون ، غاب عن شهود الحقّ فيه. فما نُصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها. فمراد الحقّ منك أن تراها بين من لا يراها من حيث ظهوره فيها ، ولا تراها من حيث كونيّتها. فالناظر للكائنات غير شاهد للحقّ فيها غافل ، والفاني عنها ذاهل ، والشاهد للحقّ فيها عبد مخصوص كامل. وإنّما تُرفع الهمّة عن الكون من حيث كونيته لا من حيث ظهور الحقّ فيه »[5]. فالوليّ لا يغيب عن دنيا الناس وإنّما يشاركهم بيقظة الروح ومراقبة الله في كل أحواله من شؤون الدنيا ، مراعيا أوامره ونواهيه وهو في ذلك يراعي توجيهات الرسول ﷺ. والوليّ في كل أقواله وأفعاله وأحواله ضعيف إلى توفيق الله له. فأعماله لا تستوجب أنواراً وهو لا يستوجب إقبالاً حتى يحالفه التوفيق من الله.

---

[1] – سورة النساء ، الآية 28.

[2] – سورة الطلاق ، الآية 3.

[3] – ابن عطاء الله السكندري ، المرجع السابق ، ص 142.

[4] – المرجع نفسه ، ص 147.

[5] – المرجع نفسه ، ص 30.

وأمّا فيما يخصّ الكرامات فيعتبر بعض المثقفين أنّ الكرامة والحكاية الّتي تعبّر عنها ترجع إلى أساس الخيال واللاشعور في الإنسان. فالخيال لا يحدّه حدود. وعجز المرء عن واقعه وتفسيره له يجعله يحلّق في الأفق الأوسع للخيال ، وذلك لأجل التخفيف من حدّة التوتّر الدائرة به وامتصاص شعور الإحباط. ولهذا الخيال علاقة بالتعبيرات الرمزية للطبقات اللاواعية للذات الإنسانية كالأحلام والخرافات والمعتقدات الخرافية ، ويشكّل السلطة المنبعثة من الرأسمال الرمزي لمواجهة القهر الذي تمارسه الطبقات المسيطرة في المجتمع[1].

والكرامة من خلال الحكاية هي صورة للعالم المثالي والمجتمع الأكمل وللفضائل والقيم العليا الّتي يتخيّلها الإنسان ويتمنّاها. غير أنّ الأبعاد التخيّلية تخلق عوالم غريبة وغير معقولة. وإنّ الوسيط في الحكاية المتعلّقة بالكرامة مع المتلقّي هو التخيّل الذي يبني عالما ينبغي أن يعاش من طرف المستمع أو القارئ كواقع فعلي رغم اتسامه بطابع الغرابة. فالمفترَض أنّ المتلقّي يرتبط بها ارتباط مصدّق ومؤمن. والسامع ليس مجرّد شاهد لأحداث تسليه وتمتّعه ولكنه ينخرط بوعيه في كل ذلك بسبب إحالته على المقدّس. وتتميّز الحكايات الّتي تروي الكرامات بطابع الفانطاسي بما فيه من إعجاب ودهشة وحيرة يبعث الخوف في المتلقّي ، ويجعله يعيش التردّد بين الحقيقة والخيال لأنّ أثره النفسي يمسّ المعرفة السابقة له. وتفترض هذه الحكايات على متلقّيها التمثّل والانغماس فيها ، وذلك لإشباع حاجة غيبية في نفسه فوق طبيعية. وهذا الترقب ينبع من التجربة الوجدانية المتعلّقة بالقلب وليس بالعقل. وهذا الشيء المقدّس الفوق طبيعي ليس خرافيا ولكنّه أمر بسيكولوجي يعبّر عن ميل فطري يترجم حاجة بشرية موجودة سواء استطاع العقل أن يفسّرها أم لا. ودليل وجودها أنّ الناس تؤمن بها كما تؤمن بوجود الطبيعي.

ويرجع محمد أركون الطابع العجيب في الكرامة إلى القرآن. لأنّ القرآن يؤسّس لهذه العلاقة ويتحدّث عن وقائع غير عادية لا علاقة لها بالمجرى الطبيعي للأشياء ، كالمعجزات

[1] – حكيم مبلود : الكرامة الصوفية في منطقة تلمسان ، المرجع السابق ، ص 102.

والملائكة والبعث. وهي وقائع لا يمكن تفسيرها بواسطة السببية ، غير أنّها أكثر حقيقة وصحة من المعطيات الطبيعية. والخطاب القرآني يضع المؤمن أمام عالم آخر غير موجود في السياق الطبيعي ولكنّه يبقى في الإمكان. فالطابع المدهش في القرآن يربط المؤمن بالممكن ارتباط إيمان ويعيشه كواقع يتجاوز طاقته الإدراكية[1].

ومهما تأسست الحكايات الكرامية من المنطق القرآني ، إلاّ أنّها كما يرى أحد الباحثين تشرّبت كثيراً من المعتقدات الّتي كانت سائدة عند الشعوب من أساطير كانت معروفة عند الفرس والرّوم والهند. وكلّ هذا انتقل إلى تفاسير القرآن وسير الأنبياء وكتب التاريخ ضمن ما يسمّى بالإسرائيليات وغيرها ممّا أضفى الخصوبة والتنوّع على مفهوم الفانطاسي في الحكاية المتعلّقة بالكرامات[2].

والكرامة تجسّد علاقة المقدّس بالطبيعي ، وترتبط بالمتخيّل في إطار القصص الديني كما تلقّته المتخيّلة الشعبية مع الإضافات الّتي لحقته. ذلك أنّ المجتمعات تتلقّى هذا الخطاب الديني في الأساس كقصص ، فلا تتركه صافيا مجرّدا ولكن تطبعه بالتصوّرات والمعتقدات الّتي تعيش في الثنايا اللاشعورية للمتلقين ، فيلتقي في هذه الحكايات مظهر الدين الذي يمثّل حالة التسليم الصادق ، والخرافي الأسطوري الذي يمثّل التخيّل. وهذا الوصف يبدو صحيحاً إن كان ينطبق فقط على الحكايات المرويّة بالنسبة للفترات المتأخرة ، ولا يمكن أن تتطابق مع المعايير والشروط الّتي وضعها علماء الأمّة والّتي من خلالها يكرم الله تعالى أولياءه بما شاء من الكرامات الحسية والمعنوية.

[1] – حكيم ميلود ، المرجع السابق ، ص 124.

[2] – المرجع نفسه ، ص 125.

الفصل الثالث

الوليّ بين الكرامة والتجربة الروحية

المبحث الأوّل : وسائل التقرّب إلى الله.

المبحث الثاني : أخلاق الوليّ وسلوكه.

المبحث الثالث : مظاهر الولاية.

المبحث الرابع : أساليب الرقيّ الروحي للوليّ.

الفصل الثالث

الوليّ بين الكرامة والتجربة الروحية

المبحث الأوّل

وسائل التقرّب إلى الله

I- أعمال ظاهر الشرع :

الإيمان بالله ورسوله :

إنّ الوليّ الذي ينطق بشهادة أن " لا إله إلاّ الله " يعي أسرار التوحيد وهو وحده يدرك مغزى هذا التأكيد. إنّه يطلق الإنسان من سجن الكثرة ويجعله كاملاً متكاملاً. فالعامة يعلنون الإيمان بالله الواحد ، لكنّهم يعيشون وينحرفون عملياً كأنّ في حياتهم آلهة كثيرة. والولي يسعى في الكشف عن هذا التعدّد ليشفي النفس من هذا الدّاء المشتت لها. وإنّ الإيمان بالله وحده هو الذي يجعل الإنسان متكاملاً في أقصى أبعاد وجوده عمقا وسعة. فالله واحد أحد فينبغي لعبده وهو الإنسان أن يكون واحدا هو أيضا لا مشتتا وموزّعا بين أشتات من التخيلات والمفاهيم ونـــهبا مقسّما بين الزّواجر والنوازع النفسية.

ويدرك الوليّ معنى شهادة " محمّد رسول الله " أنّه خليفة الله في الأرض وهو الميدان الذي تظهر عليه الأسماء الحسنى والصفات الإلهية على منهاج النبيّ ﷺ ويتمّ هذا بأداء العبادات ، ثمّ أداء الأعمال اليومية على وجهها بـــمراقبة الله فيها. وإنّ الإيمان بالله والتوحيد هو الباب الأعظم لدخول سوح الولاية ويحدّد درجة الولي من القرب وحظّه من العمل والثواب ، لأنّه من لازم الإيمان التقوى والعمل السويّ. ومع الإيمان بالله يكون الإيمان بالرسل والملائكة والكتب الّتي أنزلها الله إلى عباده ، وكذلك الإيمان بالقدر خيره وشرّه.

وهذا الإيمان هو أصعب الخصال ، لأنّه إذا تحصّل عليه الإنسان على الوجه المعتبر هانت عليه جميع الأشياء الدنيوية والأخروية.

ويضاف إلى شعبة الإيمان درجة الإحسان حيث جمع الإسلام بين الإيمان والإحسان. لأنّ من بلغ هذه الدرجة كان في الذروة العليا من الإيمان. فمن يعبد الله كأنّه يراه كان في الرتبة الأولى من التصديق بالله وكان في غاية الانصراف إلى الله بالكلية وكأنّه هو الذي أحبّه الله فصار سمعه وبصره ويده فلا يصدر منه إلاّ خيرا. والإنسان بهذه الصفة هو المخلوق الوحيد في هذا العالم ، القائم في مركز هذا الكون ومحوره ، وهو موجود لأن يعكس الأسماء والصفات الربانية بصورة جامعة وواعية. وحتّى يبلغ الإنسان مرتبة الولاية يجب أن يحقّق جميع إمكانات المرتبة الإنسانية وأن يصبح من ثمّ الإنسان الكامل. ومطلب الولي هو بلوغ هذه المرتبة. ومن أعظم محصّلات مقام الإحسان ، الخشوع لله والخوف منه والخشية. قال الله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربّه جنّتان ﴾[1]. وفي حديث السبعة الذين يظلّهم الله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه « رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله »[2]. ومن محصّلات درجة الإحسان ، نجد فضيلة الزهد والترفّق والأناة والحلم وحسن الخلق وطلاقة الوجه...الخ.

القيام بالفرائض :

إنّ أحبّ الأعمال إلى الله هو ما افترضه على عبده ، وهو أفضل القربات إليه لقوله في الحديث القدسي : « وما تقرّب إليّ عبدي أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه »[3]. ففي أدائها امتثال لأمره وهو مظهر الطاعة وإظهار لذلّ العبودية وعظمة الربوبية. ولا ينافي أنّها أعظم

[1] – سورة الرحمان ، الآية 46.

[2] – رياض الصالحين : الإمام يحي بن شرف النووي ، دار الفيحاء دمشق ، ط13 ، 1991 ، ص 240.

[3] – المرجع نفسه ، ص 61.

القربات إلى الله أنّ الله يحبّ المتقرّب إليه بالنوافل. فمن تقرّب بها بعد أداء الفريضة كان دليلاً على روح الإخلاص في الامتثال لأداء الفريضة.

والفرائض الإسلامية منها ما هو ظاهر ومنها ما هو باطن كمخالفة الاعتقادات الباطلة والامتثال لأمر الله في الأمور الباطنية. وأثرها في حياة الإنسان قد يكون أبعد أثرا من الفرائض الظاهرة. ويمكن أن يكون المرء مؤمناً وهو متلبّس بشيء من المعاصي الباطنية كالحسد والعجب والكبر...الخ.

يقول ابن عطاء الله : « فاعلم أنّ الفرائض الّتي اقتضاها الله من عبادة ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة : الصلوات الخمس وصوم رمضان والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبرّ الوالدين. وأمّا الباطنة : العلم بالله والحبّ له والتوكّل عليه والثقة بوعده والخوف منه إلى غير ذلك ، وهي فعل لقوله تعالى : ﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ﴾[1] ، وهذا أمر بالعمل وقال في تتمّة الآية : ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ وهذا أمر بترك المذموم »[2].

والفرائض الظاهرة ليست هي فقط الخمس المذكورة في الحديث ، واشتهرت بأنّها أركان الإسلام ، إنّما هي كثيرة وقد أضاف بعضهم إليها الجهاد وترك المعاصي وهي من أعظم الفرائض[3].

وأمّا الفرائض الباطنية فيذكر العلماء منها :

[1] – سورة النحل ، الآية 90.

[2] – ابن عطاء الله السكندري : لطائف المنن ، المرجع السابق ، ص 23.

[3] – إبراهيم إبراهيم هلال ، المرجع السابق ، ص 135.

- إخلاص النية في أداء الأعمال وهي عمدتـــها وتترتب عليها صحّتها أو فسادها لقوله عليه الصلاة والسلام : « إنّما الأعمال بالنيات »[1].

- البعد عن سوء الظنّ وعن الأخلاق الذميمة مثل التباغض والتدابر.

- البعد عن الكبر والعجب.

- الصدق والبعد عن النفاق.

- الأمانة والبعد عن الخيانة الّتي هي من خصال النفاق.

- المحبة والبغض والكراهية ، فالمرء يحبّ ويبغض لله.

- التوبة والبعد عن الطّيرة والخوف من الله تعالى.

- حسن الظنّ بالله وقصر الأمل.

نلاحظ أنّ كلّ هذه الخصال باطنية يتمّ التحقّق بها بتزكية النفس وتطهيرها بأنواع الرياضات الروحية.

التقرّب بالصلاة :

تكمن خطورة الصلاة في الإسلام في أنّها من مستلزمات تطبيق أحكام الشريعة ؛ إذ أنّ الولاية هي باطنية الدين. وإنّ ممارسة الشريعة هي خطوة أولى في سبيل تكامل الإنسان في جسده ونفسه وسائر قواه الحيوية. فالصلاة إلى جانب الإيمان تمنح الإنسان ضربا من اليقين وتجنبه اللجوء إلى دروب أخرى لالتماس النجاة من طغيان عالم الحس. والإنسان يفتقر إلى اللاّمتناهي وإلى المطلق ، حتّى يبقى على صعيده الإنساني ، والصلاة في الإسلام هي مفتاح ذلك.

[1] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 20.

التعبّد بالنوافل :

النوافل عامة وشاملة لكلّ الطّاعات من صلاة وصيام وزكاة وحجّ. وبأداء النوافل الّتي هي من ظاهر الشرع يترقّى المرء إلى الولاية فضلا عن أن يسلك الرياضات والمجاهدات وهي من علم الباطن.

والنوافل هي الزيادة ، ولذلك سمّي النفل نفلا وهو ما ينفله الإمام لمن يراه زائدا على نصيبه من الغنيمة. وقال ابن عطاء الله : « والله لم يوجب شيئا من الواجبات غالبا إلاّ وجعل من جنسه نافلة حتّى إذا قام العبد بذلك الواجب وفيه خلل جبر بالنافلة الّتي هي من جنسه. ولمّا علم الله تعالى أنّ في عباده المؤمنين أقوياء وضعفاء ، فسح على الضعفاء الاكتفاء بالواجبات ، وفتح للأقوياء باب النوافل »[1].

ويرى الصوفية أنّ القصد من كلّ أوامر الله تعالى يستلزم الجمع على الله وكل منهي يتضمّن التفرقة عن الله. فجميع الطاعات هي أسباب الجمع ووسائله.

- *نوافل الصلاة* : هي رواتب الفرائض الخمس ، وصلاة الليل والضحى وكذلك في سائر الأوقات إلاّ في أوقات الكراهة.

- *نوافل الصيام* : هو صيام شهر المحرم ، ويوم عاشوراء ، وستّ من شوال ، وصوم عشر ذي الحجة ويوم عرفة ، وصوم شعبان ، وصيام الاثنين والخميس وبقية الأيام ما عدى الأيام المنهي عنها كأيام العيد.

[1] - ابن عطاء الله السكندري ، المرجع السابق ، ص 24.

- *نوافل الحج* : ورد في ذلك حديث أبي هريرة ﷺ قال : « سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله وبرسوله. قيل : ثمّ ماذا؟ قال : الجهاد في سبيل الله. قيل ثمّ ماذا ؟ قال : حجّ مبرور »[1].

- *نوافل الصدقة* : لقد ورد في نوافل الصدقة الترغيب الكثير إذ قال الله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾[2]. وقال رسول الله ﷺ « ما من يوم يصبح فيه العبد إلاّ وملكان ينزلان من السماء فيقول أحدهما: اللهمّ أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »[3]. وقوله ﷺ : « يا ابن آدم إنّك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسك شرّ لك، ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى »[4]. ومن حديث ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول ﷺ : « أيّكم مال وارثه أحبّ إليه من ماله. قالوا : يا رسول الله ، ما منّا إلاّ ماله أحبّ إليه. قال : فإنّ ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر »[5]. وفي الصحيحين من حديث عن ابن مسعود ﷺ عن النبيّ ﷺ قال: « لا حسد إلاّ في اثنين : رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها ». وفي رواية « لا حسد إلاّ في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل أتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل ، وآناء النهار »[6].

والأحاديث في الترغيب في الصدقة وعظيم أجرها كثيرة وأفضلها صلة الرّحم. كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال : « من سرّهُ أن يبسط له في رزقه

[1] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 33.
[2] – سورة سبأ ، الآية : 39.
[3] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 129.
[4] – المرجع نفسه ، ص 211.
[5] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 2023.
[6] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 210.

وينسأ له في أثره فليَصل رحمه ». ومن حديث عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الرحم معلّقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله »[1].

الإيمان بالقدر :

خصال الإيمان الأربعة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، يستوي فيها غالب المسلمين. وأمّا الخامسة وهي الإيمان بالقدر خيره وشره فهي الخصلة العظمى الّتي يتفاوت فيها المؤمنون بكثير من الدرجات. فمن رسخ إيمانه في هذه الخصلة ارتفعت درجة إيمانه ، ولا يستطيع الإيمان بها كما ينبغي إلاّ خُلّص المؤمنين وأفراد عباد الله الصالحين. لأنّ المؤمن بذلك يُضيف إلى الله تعالى كلّ ما يناله من خير وشر ، ولا يلتجأ إلى الأسباب الّتي يتعرض لها كثير من الناس. والله الخالق لكلّ شيء وخالق الإنسان من العدم يتصرّف في مخلوقاته كيف يشاء كما يتصرّف الإنسان في ملكه من غير حرج. والذي يؤمن بالقدر خيره وشره يرضى بكلّ ما يأتيه من ربّه لعلمه بأنّه بقَدَرٍ سابق من الله تعالى في الأزل ، فتهون عليه المصائب فلا يخاف ولا يحزن.

ومن فوائد رسوخ الإيمان بهذه الخصلة أنّ المؤمن يعلم أنّ ما وصل إليه من الخير كيفما كان وعلى يد أيٍّ كان ، فهو نعمة من الله عز وجل فيحصل له السعادة والسرور. وعدم الإيمان بالقدر خيره وشره من شأنه أن يعظم المصائب في قلب الإنسان.

II- الأذكار المسنونة :

التقرب بالذكر :

بالذكر يتهل الإنسان إلى الله وبه يتحرّر من كلّ ما هو غير الله. وسياق التحول يظهر تدريجياً في النفس الإنسانية. فبمساعدة الذكر المقترن بصور مناسبة من الفكر يكتسب

[1] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 1895.

الإنسان روحاً متكاملة نقية. وفاعلية الذكر تظهر أيضا في الجسد إذ أنّ طهارة وجوده الداخلي تترك أثرها على سمات الإنسان الخارجية. ومن آثاره أنّه يشفي من أمراض الروح ويكفّ عن جميع التوترات الناجمة عن الحاجة العميقة والملحّة التائقة إلى ما وراء المحسوس ، ويخفف وطأة العالم المادي عليه. فالإنسان بالذكر لا يحي حياة مجزّأة الوجود ، بل إنّ أفكاره وأفعاله جميعها تنطلق من مركز واحد. ويتمّ تحقيق الجمع بين الطرق التأمّلية والفعلية في وحدة تامّة. ويقرن الإنسان بين التأمّل والتفكير في أنقى فاعلية وأكثفها ويغدو التجلّي التام للأخلاق الإلهية في كلّ ما يقول ويفعل[1]. وهذا الذكر قد رغّب فيه القرآن كثيراً وكذلك السنّة النبوية. فقد قال الله تعالى : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾[2] ؛ أي أكبر ممّا سواه من الأعمال الصالحة. وقوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيرا لعلّكم تفلحون ﴾[4] ، وقال أيضا : ﴿ ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب ﴾[5].

وفي السنّة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال : يقول الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه »[6]. وقال عليه الصلاة والسلام : « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم. قالوا : بلى ، قال : ذكر الله »[7].

---

[1] – الصوفية بين الأمس واليوم : د. سيد حسين نصر ، ترجمة : د. كمال خليل اليازجي : الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ط1 ، 1975 ، ص 62.

[2] – سورة العنكبوت ، الآية 45.

[3] – سورة البقرة ، الآية 152.

[4] – سورة الجمعة ، الآية 10.

[5] – سورة الرعد ، الآية 28.

[6] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 421.

[7] – المرجع نفسه ، ص 422.

وعن رسول الله ﷺ قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلاّ حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده ». وخرج النبيّ ﷺ على حلقة في المسجد فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا جلسنا نذكر الله ، نحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ به علينا ، فقال آلله ما أجلسكم إلاّ ذاك ؟ قالوا آلله ما أجلسنا إلاّ ذاك. قال : أما إنّي لا أستحلفكم تهمة لكم ولكنّه أتاني جبريل فأخبرني أنّ الله عزّ وجل يباهي بكم الملائكة »[1].

عظم أجر الدعاء :

أفضل الذكر هو ما كان من دعاء الله تعالى. فإنّه مطلوب منه ، كما قال تعالى : ﴿ وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين ﴾[2] ، فجعل الدعاء له في الحوائج عبادة ، وجعل تارك الدعاء مستكبراً عن عبادته. وقال تعالى : ﴿ أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ﴾[3].

وأمّا في السنّة فقد قال رسول الله ﷺ « الدعاء هو العبادة »[4]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : « من لا يسأل الله يغضب عليه ». وعنه صلى الله عليه وسلّم قال: « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إمّا أن يعجّل له دعوته ، وإمّا يدّخرها له في الآخرة ، وإمّا أن يصرف عنه من السّوء مثلها »[5].

---

[1] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 426.

[2] – سورة غافر ، الآية 60.

[3] – سورة النمل ، الآية 62.

[4] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 430.

[5] – المرجع نفسه ، ص 438.

أذكار الأوقات :

من أعظم الأذكار جزاء الأدعية الثابتة في الصباح والمساء ، إذا لازمها العبد المؤمن نال السّلامة من الآفات في الدنيا والآخرة وفاز بالخير العاجل والآجل. من ذلك ، الأذكار الواردة في السنّة عند النّوم والاستيقاظ. وقد ورد عن النبيّ ﷺ قال : « أما إنّك لو قلت حين أخذت مضجعك أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق لم يضرّك ». وأمّا الاستغفار فإنّه يغسل كلّ ذنب. وقد ورد فيه أحاديث نبوية كثيرة.

أذكار التوحيد :

ممّا يلازمه المؤمن كلمة التوحيد وهي من أجلّ الذكر. فمن حديث أنس ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « يخرج من النّار من قال لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزن بُرّة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزن ذرّة من خير »[1].

ومن حديث أبي هريرة ﷺ أنّ النبيّ ﷺ قال : « من قال لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير ، في يوم مائة مرّة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيّئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتّى يمسي. و لم يأت أحد بأفضل ممّا جاء به إلاّ رجل عمل أكثر منه »[2].

الصلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وفضلها :

وممّا ينبغي للمؤمن الاستكثار منه وجعله فاتحة لكلّ دعاء ، الصلاة والسلام على الرسول ﷺ. فقد ثبت في الحديث أنّه من صلّى عليه صلاة واحدة صلّى الله عليه عشر

[1] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 38.
[2] – المرجع نفسه ، ج4 ، ص 2010.

صلوات ، ومن فضل هذه الصلاة على النبيّ ما ورد من أنّ أولى الناس به صلّى الله عليه وسلّم أكثرهم صلاة عليه.

ذكر الأوراد :

إنّ التسبيح والتكبير والتوحيد والتحميد لله تعالى قد وردت به آيات كثيرة وأحاديث نبوية جمّة منها قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبّحوه بكرةً وأصيلاً ﴾[1]. وعن رسول الله ﷺ قال : « لأن أقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس »[2]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كلمتان حبيبتان إلى الرحمان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحده سبحان الله العظيم »[3].

الأدعية النبوية :

يلازم المؤمن السالك إلى الله الأدعية النبوية والكلمات الجامعة مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي الّتي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي الّتي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كلّ خير واجعل الموت راحة لي من كلّ شرّ »[4]. وقوله : « تعوّذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء »[5]. وعنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يكثر من قوله : « اللهمّ ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »[6].

---

[1] – سورة الأحزاب ، الآية 41-42.

[2] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 415.

[3] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج5 ، ص 2364.

[4] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 432.

[5] – المرجع نفسه ، ص 431.

[6] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

الأدعية عقب الوضوء والصلاة :

يلازم المؤمن الدعاء عقب الوضوء كمـــا جاء في الحديث « ما منكم من أحد يتوضّأ ثمّ يقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله إلاّ فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيّها شاء » وعقب الصلاة يدعو كذلك كما حثّ عليه الرسول ﷺ ممّا روى المغيرة أنّه ﷺ كان يقول خلف الصلاة : « لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، اللهمّ لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[1]. ومن حديث أبي هريرة ﷺ « أن يكبّر الله ويسبّحه ويحمده حتّى يحصل من الجميع ثلاث وثلاثين »[2].

الدعاء عند دخول المسجد والآذان والإقامة وعقب الصلاة :

يقول المؤمن عند سماع المؤذن حيّ على الصلاة : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله وبعد أن يقول حيّ على الفلاة يقول : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. وبعد سماع النّداء يقول: اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمّدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محمودا الذي وعدته. وإذا دخل المسجد يقول : اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج منه يقول اللهم إنّي أسألك من فضلك.

أمّا الأدعية داخل الصلاة فهي كثيرة جدّاً في كلّ ركن من أركانـــها كما ورد في السنة النبوية.

الأدعية في الصيام والحج والسفر والجهاد وغيرها :

لقد ورد في الصيام والحج والجهاد والسفر وغيرها أدعية مروية في كتب الحديث.

---

[1] – الإمام البخاري ، ج5 ، ص 2069.

[2] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 418.

المبحث الثاني

أخلاق الوليّ وسلوكه

I- مقام الإحسان وتواضع الوليّ :

مقام الإحسان :

إنّ الإحسان هو رتبة عالية فمن يعبد الله كأنّه يراه فقد بلغ إلى أعلى مراتب الخشوع. والذي يصل إلى هذه المرتبة لا يبلغها إلاّ بعد حصوله على الإيمان الكامل وخصال الإسلام. ولا يكون هذا إلاّ لأولياء الله الراسخين في الولاية. ولهذا آذن الله سبحانه من عاداهم بالمحاربة. قال القشيري : « ولا يتمّ قرب العبد من الحق إلاّ ببعده عن الخلق. فهذا يكون فيمن لا نفع فيه للعباد وأمّا من كان ينفعهم بعلمه أو بموعظته أو بالقيام فيهم بما أوجب الله ، فهذا يكون قربه من الخلق أقرب على الله سبحانه. وهو مقام الأنبياء والعلماء الذين أخذ الله عليهم البيان للناس »[1]. وقد جاء في السنّة أنّ المؤمن الذي يخالط النّاس ويصبر على أذاهم أحبّ إلى الله من المؤمن الذي لا يخالطهم.

والإحسان قال فيه الرسول ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك »[2]. فمجموع الإحسان هو العبادة مع الحضور والمراقبة ومزيد الخشوع فيها ، والإحسان هو موهبة يتفضّلُ الله بها على خلّص عباده وأكابر أوليائه وأهل محبّته. وأعظم محصّلات هذا المقام الإحساني هو الخشوع والخوف والخشية من الله تعالى ، إذ قال الله تعالى: ﴿ ولمن خاف مقام ربّه جنّتان ﴾[3]. ومن الخصال الّتي يبلغ بها الإنسان مقام الإحسان: الرفق والأناة والحلم وحسن الخلق وطلاقة الوجه وإفشاء السلام. فمن حديث عائشة رضي

[1] – إبراهيم إبراهيم هلال ، المرجع السابق ، ص 158.

[2] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 49.

[3] – سورة الرحمان ، الآية 46.

الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه ولا ينزع عن شيء إلاّ شانه »[1].

تواضع الولي :

التواضع هو من التذلل يكون من الولي لله تعالى. قال الله تعالى : ﴿ إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾[4]. إنّ التقرب إلى الله بالعبادات لا يكون إلاّ بغاية التواضع لله والتذلّل له. والتواضع يكون كذلك مع العباد. فمن حديث حارثة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « ألا أخبركم بأهل الجنّة ؟ كلّ ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبرّه ، ألا أخبركم بأهل النّار؟ كلّ عتلّ جواظ مستكبر »[5].

II- طهارة الباطن والسبيل إليها :

إنّ الإنسان إذا ما قدر على تصفية باطنه من الأدناس فإنّه يدخل إلى الولاية الكبرى من الباب الواسع وتمسّك بأوثق أسبابـــها وتخلّص من أعظم الموانع عنها ، وصار باطنه قابلاً لأنوار التوفيق مستعدّا للظفر بالمنازل العالية الّتي هي رأس الولاية وأساس الهداية.

---

[1] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 234.

[2] – سورة الإسراء ، الآية 37.

[3] – سورة الطارق ، الآية من 5 إلى 7.

[4] – سورة يس ، الآية 77.

[5] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 1917.

السبيل إلى طهارة الباطن :

إنّ تصحيح النية والإخلاص وهي من الأعمال الباطنية هي الأساس الذي توزن به الأعمال. فمن لم تكن نيته صحيحة لم يصحّ عملُه الذي عملَه ولا أجر له. ومن لم يخلص عمله لله تعالى فهو مردود عليه كالذي يشوب نيته بالرياء. قال الله تعالى : ﴿ **وادعوه مخلصين له الدين** ﴾[1] وقال أيضا : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾[2].

وفي الحديث النبوي من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنّه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الأعمال بالنية ولكلّ امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدينا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[3]. وعن عائشة رضي الله عنها في قصة الجيش الذي يغزو الكعبة فيخسف بهم ، « قالت يا رسول الله كيف يخسف بأوّلهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يخسف بأوّلهم وآخرهم ثمّ يبعثون على نياتهم »[4]. ومن حديث أنس ﷺ قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبيّ ﷺ فقال : « إنّ أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلاّ وهم معنا حبسهم العذر »[5]. وعن ابن عباس ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « من همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنه حسنة كاملة وإن هو همّ بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة »[6].

---

[1] – سورة الأعراف ، الآية 29.

[2] – سورة غافر ، الآية 14.

[3] – الإمام البخاري ، ج1 ، ص 42.

[4] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 20.

[5] – المرجع نفسه ، ص 21.

[6] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 2036.

أمّا الرياء فهو مبطل للعمل ، موجب للإثم. وقد وردت فيه أحاديث كثيرة. ويكون الرياء في سائر أعمال الخير على العموم. والرياء هو آخر المعاصي الباطنية وأشرها مع كونه لا فائدة فيه إلاّ ذهاب أجر العمل.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن الذنوب الباطنية في قوله : « إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث. ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى هاهنا التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كلّ المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله »[1].

إنّ التقوى الّتي هي طريق النجاة الكبرى قد صرّح النبيّ ﷺ أنّها من الأمور الباطنة ، والنية والإخلاص والتقوى هي أمور باطنية وهي عمدة الاعتقاد بالأفعال والأقوال للمؤمن. وأمّا الحسد فهو مغاير للإيمان فقد قال رسول الله ﷺ : « لا تحسّسوا ولا تجسّسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً »[2]. وقد ورد في ذم الكبر والعجب قوله ﷺ : « إنّ الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتّى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد »[3]. ومن حديث ابن عمر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل ممّن كان قبلكم يجرّ إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة ». ومن الأشياء الباطنة المحبة والبغض والكراهة. وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما ، ومن أحبّ المرء لا يحبّه إلاّ لله تعالى ، ومن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار »[4].

[1] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 466.
[2] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 1915.
[3] – الإمام النووي ، المرجع السابق ، ص 472.
[4] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 30.

المبحث الثالث

مظـــاهـــر الولايـــــة

I- المحبة والهداية :

محبّة الله للوليّ :

إنّ من بلغ إلى رتبة المحبة وكان الله سمعه وبصره يجاب له كلّ دعاء ويحصل بغيته على حسب إرادته. فمن اطلع على أحوال أولياء الله سبحانه وعرف ما ذكر عنهم وجد أنّ كلّ ما توجّهوا به إلى ربّهم حاصل لهم في كلّ مطلب من المطالب. أولئك « قوم لـــمّا دعوا أجيبوا ولـــمّا أجيبوا أحبّوا ولّما أخلصوا استخلصوا صدقت منهم الضمائر فصفت منهم السرائر. وصاروا صفوة الله في أرضه ففاضت عليهم أنواره وامتلأت قلوبهم من معارفه. فهم القوم الذي لا يشقى جليسهم ولا يستوحش أنيسهم قد نالوا مطالبهم برفع أكفّهم إلى خالقهم. لا يحتاجون في حوائجهم إلاّ إليه ولا يعوّلون إلاّ عليه »[1].

ثمّ إنّ الولي لّما أتى بما أوجب الله عليه وتقرّب إليه بالنوافل لم يردّ الله دعاءه لوجود وعد الله الصادق المؤكّد في القسم إذ قال الله تعالى في الحديث الذي سبق : « إن سألني لأعطينّه ولئن استعاذني لأعيذنّه ».

ولا يكون عدم إجابة الدعاء إلاّ إذا كانت العبادة مشوبة بشائبة تكدّر صفوها ، فتصدر إمّا على طريق التقصير في علم الشريعة أو التقصير في الإخلاص الذي يوصل صاحبه إلى محبة الله تعالى. والمؤمن ولو بلغ أعلى الدرجات حتّى يكون محبوباً عند الله لا ينقطع عن الطلب من الله تعالى لما فيه من الخضوع له وإظهار العبودية له. فأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام لا ينقطعون عن الطلب من الله والرجاء له والخوف منه. والوليّ بالنسبة للنبيّ

[1] – إبراهيم إبراهيم هلال : ولاية الله والطريق إليها ، المرجع السابق ، ص 467.

كالتابع للمتبوع والخادم للمخدوم ، فهو لا ينقطع عن الطلب من الله تعالى. ولو فعل ذلك لكان ممكوراً به ورجع عدوّا بعد أن كان وليّاً له وبغيضا بعد أن كان حبيباً له[1].

هداية الله للوليّ وتوفيقه :

إذا كان الإنسان في كليّته مشغولاً بالله فلا يصغي سمعه إلاّ لما يرضي الله ولا يرى ويبصر إلاّ إلى ما أمره به. فيستدعي هذا من الله توفيقه إلى الطاعات وتسديده عن الوقوع في شيء من المعاصي. ويكون معونته إذ أنّ معونة الله هي أكبر من كلّ معونة ، « وذلك بإمداد الله تعالى للعبد بالنور الذي تلوح به طرائق الهداية وتنقشع سحب الغواية. والله نور السماوات والأرض. قال الله تعالى: ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾[2]. وإذا أمدّ الله العبد من نوره يصير صافيا من كدورات الحيوانية الإنسانية لاحقا بالعالم العلوي ، سامعا بنور الله مبصرا بنور الله باطشا بنور الله ماشيا بنور الله ، وليس في هذا ما يخالف موارد الشريعة ولا ما ينافي إدراك عقول البشر عند العارفين بالكتاب والسنّة »[3].

II- تكريم الله للوليّ ونصرته :

إنّ من تكريم الله تعالى للولي أنّه قال : « من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب » وهو أنّه من عادى وليّا ، وهذه التسمية تشريف له ورفع لشأنه إذ أضافه إلى نفسه ، فقد أعذر الله إلى كلّ سامع أنّ من هذا شأنه لا ينبغي أن يعادى ، بل على كلّ من عرف أنّ هذه صفته أن يواليه ويحبّه ، فإذا لم يفعل فقد أعذر الله إليه ، ونبّهه على أنّ من عاداه يستحقّ العقوبة البالغة وهو الحرب. وإنّ الحرب تنشأ عن العداوة والعداوة تنشأ عن المخالفة ، وغاية الحرب الهلاك.

[1] – إبراهيم إبراهيم هلال ، المرجع السابق ، ص 468.

[2] – سورة الحديد ، الآية 28.

[3] – إبراهيم إبراهيم هلال ، المرجع السابق ، ص 416.

قال ابن عطاء الله في لطائفه : « فكيف يدع الله أولياءه من نصرة وهم قد ألقوا نفوسهم بين يده سلما واستسلموا لما يرد عنه حكما. فهم في معاقل عزّه تحت سرادقات يده يصونهم من كلّ شيء إلاّ من ذكره ، ويقطعهم عن كلّ شيء إلاّ عن حبّه ، ويختارهم من كلّ شيء إلاّ من وجود قربه. ألسنتهم بذكره لهجة ، وقلوبهم بأنواره بهجة. وطّنَ لهم وطنا بين يديه ، فقلوبهم حائمة في حضرته ، وأسرارهم محقّقة لشهود أَحَدِيَّته. وفيما يروى عن أبي العباس المرسي قال : ولي الله تعالى مع الله تعالى كولد اللبوءة في حجرها أتراها تاركة ولدها لمن أراد اغتياله ؟ »[1].

اللطف والنصرة :

قال أبو القاسم القشيري[2] : « قرب العبد من ربّه يقع أوّلا بإيمانه ثمّ بإحسانه وقرب الربّ تعالى من عبده بما يخصّه به في الدنيا من عرفانه وفي الآخرة من رضوانه وفيما بين ذلك من وجوه لطفه وامتنانه . فأخبر الله تعالى في كتابه أنّه لطيف بعباده ، ولو لا ما تفضّل به على عباده من جري ألطافه كلّهم لم يهتدوا إلى معاش ولا معاد ، ولا عمل دنيا ولا عمل آخرة. وأمّا النصرة فقد وعدها الله عباده المؤمنين فقال : ﴿ وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين ﴾[3] ».

[1] – ابن عطاء الله السكندري : لطائف المنن ، المرجع السابق ، ص 22.

[2] – المرجع نفسه ، ص 394.

[3] – سورة الروم ، الآية 47.

المبحث الرابع

أساليب الرقي الروحي للوليّ

إلى جانب هذه الأعمال والمجاهدات الّتي وردت في القرآن والسنّة والّتي من شأنها أن تنتج الإنسان المحبوب لله تعالى وهي رياضة ومدرسة يخرج منها الإنسان وقد زكت نفسه وسمت وأصبح شخصاً صالحا لنفسه ولمجتمعه ، إلى جانب هذه الطريقة التعبديّة الصحيحة فإنّ الأولياء قد يمارسون تجربة روحية تعتمد إلى جانب السلوك الذي ذكر آنفاً ، سلوكات أخرى قد تزيد من قربهم إلى الله متى ارتبطت واقتربت بالكتاب والسنة. فإلى جانب ما تقدّم من طريقة التعبّد لله كما وردت عن الرسول ﷺ فإنّ لبعض الأولياء وهم الذين اختصّوا باسم الصوفية ، أساليبهم الّتي تميّزوا بها. ويرى ابن سينا[1] أنّ هذا الصنف من الأولياء يمكن أن يتحقّق بثلاث صفات كلّ صفة تقابل اسماً :

- *فالزاهد* : هو المعرض عن متاع الدنيا وطيّباتـــها.

- *والعابد* : هو المواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما.

- *والعارف* : هو المتصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحقّ في سره. وقد يتركّب بعض هذه مع بعض. وأرقى هذه الثلاثة هو العارف. وهو الذي يتسامى في عبادته وزهده لأنّه سمى بنفسه وبفكره إلى مشاهدة نور الحقّ والانصراف إليه عن كلّ شيء غيره. فالزهد عند غير العارف معاملة ، كأنّه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة ، وأمّا العارف فقد تنـــزّه عمّا يشغل سره عن الحق وتكبّر على كلّ شيء غير الحق. والعبادة عند غير العارف معاملة ، كأنّه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة هي الأجر والثواب.

[1] – إبراهيم إبراهيم هلال ، المرجع السابق ، ص 142.

وعند العارف رياضة لهمّته ، وقوى نفسه المتوهمة والمتخيّلة ليجرّها بالتعويد عن جانب الغرور إلى جانب الحق فتصير مسالمة للسر الباطن حينما يستجلي الحق لا تنازعه.

ويعتقد هذا الصنف من الأولياء أنّ أداء العبادات من صلاة وصيام وعبادات بدنية هي جزء من مسافة الطريق الّتي توصلهم إلى الله حقيقة. ولهذا فعليه أن يصل إلى مقامات أخرى ، مثل التوبة والصبر والشكر والخوف ...الخ. والهدف من الرياضة الروحية هو الوصول إلى الكمال الروحي للنفس الإنسانية وكذلك مشاهدة الله بعين البصيرة ؛ أي الوصول إلى الإيمان القائم على المشاهدة ، ومعرفة الله حقّ معرفته والفناء فيه ومحبته. ومن المسالك الّتي يسلكونها للوصول إلى ذلك :

I- الزهد والخلوة :

الزهـــد :

إنّ الزهد أصبح علما في الإسلام من القرن الثاني حتّى الرابع الهجري. يرى ابن عربي أنّ الحياة الروحية تتضمن نوعين من المعرفة :

- أحدهما يتألّف من الحقائق العقائدية وقواعد الأخلاق الدينية الّتي تبيّن للنفس معايير ما يجب عليها اعتقادها وعمله لعبادة الله وبلوغ السعادة القصوى.

- والثاني يتألّف من مجموع التجارب الّتي تصل إليها النفس بنور الإيمان ، تبعا لمقاماتها في المعرفة وهي في طريق عبادة الله.

والزهد علم عملي ، وفنّ لعبادة الله ومنهج للحياة يؤهل لمعرفة تجريبية وذوق لأحوال المعرفة الّتي تولّدها في النفس المجاهدات الزهدية. ويمكن بهذه الطريقة تحليل وتقسيم الحياة الروحية ومنها الكرامات. ومن الباحثين من يجعل نور الإيمان وحده معياراً للحق وليس

العقل الطبيعي وحده والمعرفة النظرية[1]. إنّ النفس هي محلّ التوفيق الذي هو نور وعون من الله للعبد لكي تكون أفعاله موافقة لما تقضي به الشريعة.

والزهد هو المظهر العام لرياضة النفوس. ولقد عرفت بالزهد طـــائفة من المسلمين على عهد الرسول ﷺ وهم أهل الصّفة في المدينة وهم فقراء المسلمين وضعفاء المهاجرين ، قد بُنيَت لهم صفّة في ظلال مسجد المدينة لفقرهم ومظهرهم ؛ إذ كانت عليهم جباب الصوف ولم يكن عندهم غيرها وكان يخرج منها رائحة الضأن من شدّة الحرّ. وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾[2]. وقد وصفوا بأنّهم قدوة للمتجرّدين من الفقراء لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال. كانت أفراحهم بمعبودهم ومليكهم، وأحزانهم على فوت الاغتنام من الأوقات والأوراد. حماهم الله من التمتّع بالدنيا والتبسط فيها لكي لا يبغوا ولا يطغوا.

والوليّ باعتقاده الكامل فولايته قائمة على تعاليم الإسلام الاجتماعية والشرعية ، القصد منها أن تمارس في وسط المجتمع لا في مناخ " رهباني " في معزل عن النظام الاجتماعي. فالولي يتحمّل الفقر في داخل نفسه ولو عاش خارجا في غمار ثروات العالم. فالعالم في نظر الولي معدوم لأنّه يعيش فيه دون أن يراوده ما فيه. وحياة الوليّ هي الطريقة الّتي يتمّ فيها دمج الحياة الفعلية بالحياة التّأملية ، بحيث يتمكّن الإنسان من أن يبقى داخليا قابلا لتلقّي المؤثرات السماوية. ويعيش حياة داخلية تأمّلية مكثّفة ، فيما يبقى خارجيا شديد النّشاط في عالم يبدو من ظواهره الكثيرة أنّه يتنكّر لله وينسى الإنسان من هو وما هو

[1] – أثين بلاثيوس : ابن عربي حياته ومذهبه ، المرجع السابق ، ص 114.

[2] – سورة الكهف ، الآية 28.

مصيره[1]. فالولي يستطيع أن يكيّف هذا العالم بحسب طبيعته الروحية الداخلية بدلاً من أن يصبح أسيراً فيه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ سيرة نبيّ الإسلام هي أساس كلّ طريق إيماني وكل حياة روحية تقوم على القرآن والسنّة. وقد كان من أخلاق النبيّ ﷺ أنّه كان يشدّ على بطنه حجرين وذلك بسبب الجوع وتجافيه عن متاع الدنيا. فمن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيّام حتّى قبض »[2]. وروى ابن مسعود رضي الله عنه قال : « نام رسول الله ﷺ على حصير ، فقام وقد أثّر في جنبه ، قلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً ، فقال: مالي وللدنيا ؟ ما أنا في الدنيا إلاّ كراكب استظلّ تحت شجرة ثمّ راح وتركها »[3].

الخلـــوة :

لقد عرف الإسلام في عهد مبكّر نوعا من التعبّد الإرادي يقوم به عامة المؤمنين وهو ما يسمّى بالاعتكاف ؛ أي الخلوة الروحية. وثمّـــة نصوص موجودة في الفقه الإسلامي تدلّ على صحة الاعتكاف. فيروي ابن عمر رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان »[4]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان النبيّ ﷺ يعتكف في كلّ رمضان عشرة أيام ، فلمّا كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً »[5]. فالاعتكاف يتمّ في أي وقت من أوقات السنة ، لكنه في رمضان أكثر من غيره. وهو يشتمل على أعمال مخصوصة بشروط خاصة. فأمّا العمل الذي يخصّه فهو : الصلاة وذكر الله وقراءة القرآن. وهو سنّة يقوم بها عامة المؤمنين وينذر أن يترك بينه وأهله وعمله ليعتكف لمدّة ثلاثة أو

[1] – سيد حسين نصر : الصوفية بين الأمس واليوم ، المرجع السابق ، ص 70.

[2] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج4 ، ص 1731.

[3] – الإمام النووي : رياض الصالحين ، المرجع السابق ، ص 191.

[4] – المرجع نفسه ، ص 385.

[5] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

عشرة أيام في مسجد ابتغاء أن يكرّس نفسه وهو في اعتكافه لحياة التقوى ، الّتي تتألّف جوهريا إلى جانب القصد من تعبّد لله التزام العفة التامة. فيمتنع من مباشرة النساء ويعتزلهنّ اعتزالاً تاماً. ويصوم الصوم المفروض في الشرع وهو الامتناع عن الطعام والشراب من مطلع الشمس حتّى غروبها. وإلى جانب هذه الأفعال السالبة من امتناع عن الطعام والشهوات ، توجد أفعال إيجابية كقراءة القرآن والصلاة وذكر الله والتّفكُر. والصوفية يمارسون الاعتكاف بشكل أشدّ صرامة وعلى نحو متّصل. هذا ما يسمّى بالخلوة وطريقتها أدقّ من الاعتكاف. ويضع ابن عربي[1] شروطاً معلومة فيمن يقوم بها. وأوّل شروط الخلوة تطهير النفس تطهيراً تاماً بالزهد ، لأنّ بدونه لا يمكن الوصول إلى الإشراق الذي هو ثمرة الخلوة. ولا بدّ من القيام بخطوات إيجابية أولى في طريق الكمال الروحي بواسطة ثلاثة فضائل : الورع والزهد والتوكل. وحتّى تتمّ الاستفادة يجب التزام طريق الاعتدال وذلك بالتبلّغ من الطعام بما يلزم واجتناب الشبع.

وعلى الوليّ الصوفي أن تكون له معرفة بالدين وعلومه حتّى يتمّ له التمييز بين الأحوال الشاذة الّتي تَعْرِضُ للنفس في الخلوة ، ولا تكفي المعرفة الأوّلية البسيطة في التعريف بين الواردات الروحانية الـمَلَكيّة والواردات الشيطانية. وقد ينقطع السالك في غرفة منعزلة ضيقة ومظلمة ممّا يمنع كلّ تشويش من جانب الحواس. والوسيلة الثانية روحية ؛ هي الاحتشاد الباطن للنفس الذي يسهّل تركيز الروح على الفكر في الله وحده ، مُخْلياً النفس من كلّ فكرة أو صورة أو رغبة يمكن أن تشوّش الانتباه. ويكون العابد في هذا العمل في حضرة الله. ومشاعره كلّها تواضع واحترام ، فإنّه يجلس متطهّراً قد توضّأ وضوءه للصلاة ويستعدّ للخلوة بتوبة صادقة مصحوبة بتوكّل كامل متوجّها القبلة كما في الصلاة ، يغمض عينيه حتّى يكون حشده للنفس أقوى ، ويجعل يداه على ركبتيه ويردّد الكلمة الطيبة " لا إله إلاّ الله " على فترتين الأولى " لا إله " يفرغ النفس من كلّ صورة أو فكرة أو رغبة

[1] - أنين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 184.

في أسماء ليست هي الله ، والثانية وهي " إلاّ الله " يحشد كلّ الطاقات الروحية في الله وحده لتلقّي الكشف. ثمّ إنّ فترتي الذكر تصحبـــان بحركات إيقاعية من الرأس والجذع بانحناء وارتفاع عند النطق بكلّ واحدة. ينطق الجملة السالبة وهي " لا إله " ينطق بها من تحت السرّة ، والجملة الموجبة " إلاّ الله " تخرج من القلب[1]. وعملية الذكر هذه تكون في البداية لفظيا وفي النهاية قلبيا. فأوّل خطوة الذكر صورية يمسكها الخيال سمعا فيذكر بها من غير أن يرتقي إلى الذكر المعنوي وهو ذكر القلب. ومن الذكر القلبي ينقدح المطلوب والزيادة من العلم. ويتمّ الكشف ليس ثمرة العقل النظري بل هو نتيجة الذكر. ولبلوغ الكمال الروحي يسلك العابد بعض الوسائل منها : تنظيم الحياة – محاسبة النفس – استشعار الحضور الإلهي– الدعاء بأنواعه – التلاوة – الذكر – التفكر – اختيار مرشد روحي.

فأمّا تنظيم الحياة عند عامة المسلمين الذين يعيشون دنياهم ويسلكون سبل التقوى فإنّهم يوزعون أوقاتهم بين التزامات التعاليم وممارسات التقوى الّتي تشغل أوقات الفراغ : التلاوة – المحاسبة – التفكر ...الخ. إلاّ أنّ الخاصة منهم وهم الأولياء الصوفية فإنّ بعضهم يقسّم ليله ونهاره تقسيماً دقيقاً ويختصّ كلّ ساعة بأعمال تقوى معيّنة ، وإنّ خطّة الحياة هذه تعتبر كذلك وسيلة للتكميل.

ومن أعمال التقوى الّتي يتّبعها الولي وتكون رياضة له هي محاسبة النفس ، وفعاليتها تكون في تصحيح الرذائل والنقائص. وتتألّف المحاسبة من ثلاثة عمليات : التبصّر بالأخطار أو الفرص للإثم قبل وقوعه وتوفير أسباب تجنّبها ، ومراجعة النتائج الحسنة أو السيئة. وقد ظهرت محاسبة النفس في الإسلام في العهد الأوّل وخاصة مع الحسن البصري ، وبعده نجد الحارث المحاسبي ، لقب بذلك لأنّه يلخّص الكمال الروحي في ممارسة المحاسبة. وبعده بقرون نظّم أبو حامد الغزالي في كتابه " إحياء علوم الدين " المحاسبة ، ويرى أنّها شبيهة بما يفعل

[1] – أنين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 187.

التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كلّ سنة أو شهر أو يوم. فعلى العابد أن يوزع المحاسبة مرّتين : مرة في أوّل النهار يشارط فيه نفسه على سبل التوصية بالحق ، ومرّة في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها[1]. وينصح الغزالي باستعمال حريدة فيها يقيّد المؤمن المعاصي والطاعات ، ويعلم منها ما تجنّبه من المعاصي أو أدّاه من الطاعات حسبما يقرّر في المحاسبة لنفسه كلّ يوم. وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات أي الصلوات الخمس في قرطاس ، ويدع بين كلّ صلاة بياضاً ، وكلّما ارتكب خطيئة من كلمة أو فعل أو أمر خطّ خطّاً ، وكلّما تكلّم أو تحرّك فيما لا يعنيه نقط نقطة ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعنيه ليضيّق مجاري الشيطان ». ويضيف ابن عربي تقييد الخواطر والأهواء والأفكار الّتي ينبغي تصحيحها أو تجنّبها وكذلك النية الّتي صدرت عنها الأعمال. وهذه الرياضة تتألف من جزئين ، في أوّل النهار يقيّد في الجريدة ذنوب الفكر والقول والعمل الّتي ينبغي على المؤمن تجنّبها. وفي آخر النهار قبل النوم ، يستذكر ما فعل وما قال وما فكّر فيه. ويقارنها بما قيّده في جريدته ليرى في أي الأحوال عصى الله ، حتّى يفرض على نفسه العقوبة الّتي تستحقّها ويتوب منها ، وفي أي الأحوال أطاع الله حتّى يشكره ويحمده[2].

ويقول ابن عربي : « وتحقّقْ أنّ ما في الوجود أحد إلاّ هو وأنت ؛ أي الله تعالى وأنت »[3]. وهذه الفكرة العميقة هي الينبوع ، يفيض عنه الشعور بالحضور الإلهي الذي يستلزم الإيمان واليقين الباطن أنّ الله تعالى يولي نظراته في كلّ لحظة إلى القلب الإنساني ، وينتج عن ذلك شعور مزدوج مؤلّف من الخوف والحياء. فالنفس وقد أيقنت أنّ الله يلاحظها ، فإنّها تخشى من البعد عن الله ، وتخجل وتستحيي وهي توقن أنّ الله يطّلع على ما أُخفي في الفؤاد وهو كما قال تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو

[1] – أثين بلائيوس ، المرجع السابق ، ص 346.

[2] – إحياء علوم الدين ، الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، المجلد 5 ، دار الفكر العربي ، د.ت ، ص 231.

[3] – المرجع نفسه ، ص 161.

عليـم بذات الصدور﴾[1]. وهذا الشعور لا يقتصر على أوقات العبادات المفروضة بل في كلّ الأوقات. والسالك يصحّح النية الصادقة في تخلية النفس والقلب عن كلّ ما سوى الله إلى أن تصبح عادة ، ويعتزل عن الناس ولو ظاهرياً لأنّ الأنس بالله يقتضي ذلك.

ومن الوسائل الّتي تقتضيها رياضة النفس لبلوغ المراتب العليا ، الصلاة وتلاوة القرآن، تلاوة تدبّر. وقد يضاف السماع وهو الإنشاد الديني إلى ذلك. وحتّى يرقى العابد بالصّلاة إلى مستوى التأمل عليه أن يحوّلها إلى صلاة وجدانية حقيقية بفضل الانتباه والورع. يقول ابن عربي : « فإذا توضّأت فاسع في الخروج من الخلاف ، وتوضّأ أَسْبَغَ وضوء يتوضّأ أحد للصلاة ، وأتمّه وسمّ الله تعالى في بدء كلّ حركة من حركاتك. واغسل يديك بترك الدنيا منها ومضمض بالذكر والتلاوة واستنشق بشمّ الروائح الإلهية ، واستنثر بالخضوع وطرح الكبر ، واغسل وجهك بالحياء وذراعيك إلى مرفقيك بالتوكل ، وامسح رأسك بالمذلة والافتقار والاعتراف ، وامسح أذنيك باستماع القول واتباع أحسنه، واغسل قدميك لإبطاء كثيب المشاهدة. ثمّ أثن على الله بما هو أهله وصلّ على رسوله الذي أوضح لك سنن الهدى ﷺ. وقف في مصلاك بين يدي ربّك من غير تحديد ولا تشبيه ، وواجهه بقلبك كما تواجه الكعبة بوجهك ، وكبّره بالتعظيم ومشاهدة عبوديتك. وإذا تلوت فكن على حسب الآية المتلوة ، فإن كانت ثناء على الله فكن أنت المحدّث وهو الذي يتلو كتابه عليك ، فيعلمك الثناء عليه فيما يثني به على نفسه. وكذلك في آية الأمر أو النهي وغير ذلك. لتقفْ عند حدوده وتعرف ما وَجَّه عليك سيدك من الحقوق فتحضرها في قلبك لأدائها والمحافظة عليها. ولاحظ الذي ناصيتك بيده في ركوعك ورفعك وسجودك وجميع حركاتك ، فتسقط لك الدعوى في هذه الملاحظة حتّى تسلّم. فإذا سلّمت فابق على عقدك أنّه ما ثمّ أحد غيرك وربّك سبحانه. وسلّم باللفظ على من أمرك ، فإنّ سلامك على نفسك »[2].

[1] – سورة الحديد ، الآية 6.

[2] – أثين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 165.

وهكذا تتوجه قوى النفس إلى الله تعالى ، وتطبّق على كلّ حركة من حركات الصلاة المعنى الروحي الذي يكمن فيها. وهذه بدورها تدفع الإرادة إلى تحقيق الأفعال الخاصة بكلّ خير أو فضيلة تناسبها. وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وأقم الصّلاة إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾[1] ، وقال رسول الله ﷺ : « أرأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ يوم خمساً. ما تقولوا ذلك يُبقي من دَرَنه ؟ قالوا : لا يُبقي من درنه شيء. قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا »[2].

والتأمّل فيذكره الإمام الغزالي في الإحياء ، وهو إحضار مادة التفكر في القلب. ويأتي بعده الاعتبار وهو موازنة الحقائق المتذكرة. وأخيرا ثمرة التذكر وهي الأحوال والأعمال ، والتذكّر رياضة عملية للعقل. والقرآن والسّنة يدعوان إلى التفكر والاعتبار حتّى تتحلّى النفس بالتقوى وتستشعر الخواطر المؤدية إلى النّجاة. ويرى ابن عربي أنّ العقل عاجز عن تجنّب الخطأ والشكّ في البحث في كلّ حقيقة ، وهو أكثر تعرّضا للضلال فيما يتعلّق بالبحث عن الفضائل الغيبية فيقول : « التاركون للفكر رجال أرادوا رفع اللبس عنهم فيما يريدون العلم به ليلحقوا بوراثة من قيل فيه : " وما ينطق عن الهوى " ، وبما فطر عليه من فطر من المخلوقات كالملائكة ومن شاء من المخلوقين الذين فطروا على العلم بالله ، والموحى إليهم ابتداءً من الله وعناية بهم. ولأنّ الأفكار محلّ غلط ، والطائفة الأخرى توجب ترك التفكر ، لأنّ التفكر جولان في أحد أمرين : إمّا في المخلوقات وإمّا في الإله. وأعلى درجات جولانه في المخلوقات أن يتّخذها دليلا ، والمدلول يناقض الدليل ويقابله ، فلا يجتمع دليل ومدلوله عند الناظر أبداً. فرأوا ترك التفكّر والاشتغال بالذكر ، إذ هما مشروعان فإنّه لو مات في حالة الفكر في الآيات لمات في غير الله ، وإن كان يطلبها لله ، ولكن لا يكون له شهود إلهي ، وإن كان جولانه في الإله ليتّخذه دليلا على المخلوقات والكائنات ،

[1] – سورة العنكبوت ، الآية 45.

[2] – الإمام البخاري ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 199.

كما يراه بعضهم ، فقد طلبه لغيره ، وهو سوء أدب مع الله. فلمّا رأوا مثل هذا النظر تركوه. فإذا تفكّر من هذه صِفتُه كان مثل الذي يشكر الخلق لإحسانهم فشكرهم عبادة ، لأنّ الله أمر بشكرهم. وكذلك أمرهم بالتفكّر فيما أمرهم أو عيّن لهم أن يتفكّروا فيه ، فيتفكّرون امتثالاً لأمره تعالى لا غير. ويكون ما يتّجه من العلم عندهم في حكم التَّبَع لأنّ علوم الفكر بكلّ وجه ما تقوم مقام علوم الذكر والوحي والوهب الإلهي في الرفعة والمكانة »[1].

ومن خلال هذا يرى بلاثيوس أنّ ابن عربي ينكر الاستدلال العقلي في التوحيد والأخلاق ، وهو في هذا لا يستثني في ذلك التصوّف من هذا المعيـــار العام ، وهو إنكار قدرة العقل.

وأمّا التلاوة ؛ أي القراءة المقرونة بالتأمّل هي أن يجلس العابد على الأرض ويضع المصحف على ركبتيه ممسكا إيّاه باليد اليسرى ويمرّ بصره على ألفاظ النصّ الذي تتابعه اليد اليمنى ، ويقرأ بصوت عال متأنّياً ، حتّى يركّز انتباهه ويستخرج معنـــى كلّ كلمة وكلّ آية. ولكي تكون التلاوة مثمرة يجب أن يصحبها بالمشـــاعر والخواطر الّتي يوحي بـــها النصّ للنفس وفقا لأحـــوالها ، من ألم أو دعاء أو استغفار أو محن أو تعبّد أو تواضع أو استرحام أو رجاء.

وإذا تمّ لسالك طريق الولاية ، بطرق من التعليم الديني والأخلاقي الكافي فعليه أن يمتثل توجيهات مرشده إلى طريق المجاهدة. ولنجاح هذه المجاهدة يجب توفّر خمسة شروط وهي : – الاستعداد لتحمّل الشدائد – استقامة الهمّة – قوة الروحانية – صحة التوجّه – ملازمة الباعث[2].

[1] – أنخل بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 169.

[2] – المرجع نفسه ، ص 146.

يقهر أهواء النفس. ولتصفية القلب ينبغي له ملازمة الخلوة والذكر. وللوصول إلى تجلية روحه يجتهد في تحصيل الإيمان الكامل الذي يفتح أبواب الروح للإلهامات العلوية[1].

والتوبة هي التوجّه إلى الله بالندم وهي خجل وندم وألم بسبب المعاصي السالفة. ونية صادقة في تجنّب المعاصي في المستقبل وإصلاح النفس والهرب من المعاصي الحاضرة. كذلك ردّ المظالم الّتي ارتكبها العبد وهي عمل إيجابي وهو فعل الخير. وتطهير المعاصي المعتادة يتمّ بالمجاهدة وقهر الأهواء. ولبلوغ هذا الهدف وضع ابن عربي منهجا يتألّف من أربعة أمور : الصّمت – الخلوة – الجوع – السهر. أمّا الصّمت والخلوة فيقمعان النفس الغضبية ، وأمّا الجوع والسّهر فيسهلان تطهير النفس من الشهوات والشره والفجور.

وغضّ البصر فإنّه ممّا يعتنى به حماية للحواس من إغراء اللذّة الجنسية. وعلى السالك أن يتجنّب الشره ولا يأكل إلاّ للضرورة ، ويكبح شهوة البطن. وعليه أن يتجرّد بقطع جميع العلائق الدنيوية وتخلية القلب من طلب الدنيا وقمع الأهواء ، حتّى تصل النفس إلى حدّ أن تفعل عكس ما يأمر به هواها. وتبعا لذلك فإنّ الزهد يورث السخاء وإيثار الغير على النفس والقناعة الصادقة بلطف الله. فالسالك إلى طريق الله لا ييأس لأيّ مصيبة روحية، بل يصبر ويثابر في المجاهدة والرجاء طامعا دائما إلى مقامات ومراتب أعلى في القرب من الله تعالى متسلّحا بالتّوكل ، وهو الثقة بما عند الله وتفويض الأمر إليه في كلّ شيء. كذلك التّواضع وهو أعلى مقامات الطريق وآخر مقام ينتهي إليه السالكون إلى الله تعالى ، وحقيقته العلم بعبودية النفس ، ولا يصحّ مع العبودية رياسة. والزهد ليس غاية في ذاته وإنّما هو وسيلة لمحبة الله. ومن الخصال الحميدة الّتي على السّالك التمسّك بها : محبّة الله ومحبّة المخلوقين لأجله. ومن الأعمال الّتي تثمر المحبّة ، التواضع والسخاء وخدمة الفقراء وإغاثة الملهوف والعناية بالمرضى وهداية الضّال وإزالة الأذى ...الخ. وتتعدّى أعمال الرّحمة هذه إلى المخلوقات الأخرى غير العاقلة من دواب وبهائم. وأهل الله السالكين سبيل الرّشد يأمرون

[1] – أثين بلاثيوس ، المرجع السابق ، ص 148.

بالمعروف وينهون عن المنكر ، وذلك بالسّهر على إصلاح النّاس وحثّهم على ترك الرذائل بالنصح والإرشاد وحسن الظنّ بالناس على وجه العموم وبالمذنب فيستر عيوبه ويبرز ما فيه من خير وفضل ، وهو في مهمّته الإصلاحية يتحمّل في سبيل الله صابرا ما يلقى من أذى وإهانة وشدّة من النّاس. فوليّ الله ينذر نفسه للتضحية بها في سبيل نجاة الآخرين. فإذا تمّ للمؤمن هذا المراد « تُخرقُ له العوائد عن اختيار منه ليقيم الدلالة على التصديق بالدين وصحّته في مواضع الضرورة »[1].

II- أحوال ومقامات الوليّ :

إنّ جانبا من الأبحاث الّتي وضعت تناولت المراحل الروحية الّتي يعانيها المتدرج ، ويمرّ فيها سالكا طريقه إلى الله ، وذلك بتعديد المقامات والأحوال وبسرد الفضائل الروحية الّتي يجب على المريد تحصيلها. فإذا اعتبرنا الفكرة عن الإنسان باعتباره مخلوقاً مكوّنا من جسد وعقل ، وهي فكرة ناشئة عن ثنائية ديكارت ووضعنا في الاعتبار لمفهوم الكائن البشري من حيث هو مكوّن من جسد وروح ونفس ، فإنّ الصورة تغدو أكثر وضوحاً. فالرّوح هو موضوع العمل الرّوحي وهو " النحاس " الذي ينبغي أن يحوّل إلى " ذهب ".

والطريق الروحي هو السياق الذي يتمّ به اقتلاع جذور الرّوح من العالم النفسي الطبيعي. وهذا معناه تحوّل جذري في الروح أتيح لها عن طريق الولاية إلى أن تغدو جديرة بالتقرّب من الله. ولكي تتمكّن من ذلك ينبغي لها أن تتّصف بالأخلاق الإلهية. من هنا كانت أهمية المقامات والأحوال الّتي يترتّب على الرّوح أن تختبرها والفضائل الّتي يجب أن تكتسبها. والإنسان ليس مجرّد فكر ولكنّه إرادة أيضا. والحق عندما يظهر على صعيد الإرادة يصبح فضيلة ويتّخذ صورة الصدق والإخلاص[2]. وفي التعداد التقليدي للأحوال والمقامات الّتي تمرّ بها الرّوح تعداد للفضائل المقابلة لها. فمقام كمقام الصبر ، أو حال كحال التوكل

[1] – يوسف بن إسماعيل النبهاني ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 80.

[2] – سيد حسين نصر ، المرجع السابق ، ص 85.

هو نفسه فضيلة. والهدف من الرّياضة الرّوحية للولي ليس حيازة فضائل معيّنة أو بلوغ أحوال خاصة وإنّما هو الوصول إلى الله. وللوصول إلى ما وراء الفضائل من حقائق غيبية ، لا بدّ للإنسان من الظّفَر بالفضائل أوّلا. ولكي يبلغ الفناء والبقـــاء في الله ينبغي له أن يكون قد عبر أحوالا ومقامـــات. فالولي هو الذي تطهّرت نفسه من دنس الطبيعة البشرية (في مظاهرها الحيوانية المحضة) حتّى استقرّ في المقدّمة وفي أعلى المراتب عند الله. فقد فرّ من كلّ ما ليس " هو " لا يملكون شيئا ولا يملكهم شيء[1]. فنقاوة الرّوح بتحرّرها من جميع النّوازع والمشتهيات المادية تستدعي ضرورة تعهّد الفضائل وعبور المقامات.

إنّ السفر الروحي في مفهوم الوليّ محفوف بالمصادمات المتكرّرة بين الروح والنفس بعضها عابر وبعضها الآخر دائم ثابت إلى أن يقدّر لحصان النفس الجامح أن يراضى ، وحتى تعبق الرّوح بعطور النفس ، بحيث ينتهي ذلك إلى تحوّل في جوهرها الخاص. والإنسان الذي لم يشعر بالجذبة الإلهية يسلّي نفسه بعالم الكثرة ولا يعرف شيئاً عن الحالات الرّوحية. قال بعضهم : « عندما أكون غائبا (أي الله) اجمع مصائبك لنفسك فتجيء كلّ ظاهره طبيعية في الوجود لتعزيك عن غيابي. فإذا أصغيت أَطَعْتَ وإذا أطعت فإنّك لا تراني »[2]. وعندما يحصل الجذب تبدأ الروح بممارسة الرياضة الروحية يدخل الإنسان التدابير الّتي تشتمل على الأحوال والمقامات.

ويعتبر الصدق من أعلى المقامـــات أو تاج الفضائل ، وهو من أسمى الفضائل ويقاوم جميع ما في النفس من ميول فاسدة. فقد وصف أحدهم هذا المقام بقوله : « على هذا النحو تتغيّر شخصيته وينشط فكره ، فنور الحق يستقرّ فيه ، وتزيد معرفته به. الشهوة الخبيثة

[1] – سيد حسين نصر ، المرجع السابق ، ص 86.

[2] – المرجع نفسه ، ص 88.

تزايلـــه ، وظـــلامها ينقشع عنه. وعندما يصبح ذلك الصدق وخصائصه المميزة جزءا من طبيعته لا يجد الخير إلاّ فيه وبه يقترن لا غير »[1].

إنّ عرض الأحوال والمقامات قد سلك فيها المختصّون سلوكاً شتّى ، وصغوا في تضاعيفها الخطوات الّتي تقود الإنسان إلى الله. فالأحوال يمكن حصرها في عدد معيّن. والحال هبة إلهية يتّخذ أشكالا عديدة. وسفر الروح إلى الله يشتمل على اعتبارات يصعب حصرها ؛ إذ هي من الكثرة بحيث يتعذّر إخضاع الأحوال لتدبير معيّن. والمقامات جمع مقام وهو الخُطبة أو العظة يلقيها الرّجل في حضرة الخليفة أو المَلِك. والمقام في الأصل المجلس. وهو اصطلاحا مقام العبد بين يدي الله عزّ وجلّ فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله تعالى. وأمّا الحال فنازلة تنزل بالقلوب ولا تدوم.

وأمّا المقامات ، فلمّا كانت تتّصف بالثبوت والاستقرار ، فقد اعتبر الدارسون تعدادها أسهل قليلا من تعداد الأحوال. ومع وجود طرق عديدة لوصف الخطى الّتي تفصل الإنسان عن الله. فهي تشبه محاولة وصف الخطوات الّتي يجب على المتسلّق أن يخطوها حتّى يبلغ قمّة الجبل. فالخطوات الأولى معروفة وكذلك الأخيرة. لكن عدد الخطوات الفعلية وحقائق كلّ خطوة تتوقف على المتسلّق كما تتوقّف على الطريق. ونجد أنّ بعض المختصّين قد تطرّقوا إلى تفاصيل بالغة الدقة في تقسيم مراحل تسامي الإنسان نحو الله إلى مئات المقامات ولعلّ أقدم وأجود ما كتب في هذا الصدّد هو ما أورده أبو سعيد بن أبي الخير في القرن الخامس الهجري فيعتبر أنّ الولي الصوفي حتّى يكون سلوكه في الطريق يجب أن يحوز أربعين مقاماً وهي :

[1] – سيد حسين نصر ، المرجع السابق ، ص 91.

الأوّل : **مقام النية** : الولي ينبغي أن يكون له من النية ما لو خيّر بين امتلاك العالم الأدنى وخيراته والعالم الأعلى ونعيمه أو بؤسه وشقاءه ، لترك هذا العالم وخيراته للكفار ، والعالم الثاني ونعيمه للمؤمنين ، واحتفظ لنفسه بالبؤس والشقاء.

الثاني : **مقام الإنابة** : إذا كان في خلوة فهو يرى الله ، التغيرات في العالم لا تبدّل سرّه الداخلي ، والكوارث المرسلة من السماء لا تزجر طير حبه فيطير.

الثالث : **مقام التوبة** : جميع النّاس يتوبون من الحرام ، ولا يأكلون الحرام لئلاّ ينـــزل بهم العقاب ، والأولياء يتوبون من الحلال ، ويأبون أكل الحلال لئلاّ يبتلوا بما هو حرام ومريب.

الرابع : **مقام الإرادة** : كلّ الناس يطلبون الراحة ومعها الثروة وخيرات العالم ، أمّا هم فيطلبون البؤس ومعه الانضباط والطهارة.

الخامس : **مقام المجاهدة** : سائر الناس يحاولون التكاثر من عشرة إلى عشرين ، أمّا هم فيحاولون أن يردّوا العشرين إلى لا شيء.

السادس : **مقام المراقبة** : وهي حفظ الروح في خلوة حتّى يعصم إلـــه الكون صاحبها عند الاقتضاء من ارتكاب الإثم.

السابع : **مقام الصبر** : إذا نزلت بهم كوارث العالمين لا يبدر منهم حتّى التنهّد. وإذا ابتلوا بحبّ أبناء هذا العالم لا ينقطعون عن السّير في طريق الصّبر.

الثامن : **مقام الذكر** : هو أن يعرفوا الله في قلوبهم ، ويتضرّعوا إليه بألسنتهم. وإذا وجدوا أنفسهم في طريق مسدود ، فإنّهم لا يعرفون سوى الطريق الذي يوصل إلى الحضرة الإلهية.

التاسع : **مقام الرضا** : إذا حرموا من الكساء بقوا سعداء ، وإذا اعوزهم الطعام لازمهم السرور ، ولا يمكثون مطلقا في منـــزل الإرادة الذاتية.

العاشر : **مقام مخالفة النفس** : لسبعين عاماً وأرواحهم الدنيوية تصيح ألماً طالبة تلبية رغبة واحدة لكنها لا تصيب من ذلك إلاّ الألم والمشقة.

الحادي عشر : **مقام الموافقة** : الأولياء تساوى عندهم السراء والضراء والنيل والحرمان.

الثاني عشر : **مقام التسليم** : إذا صوب إليهم سهم القدر من مكامن البلاء وضعوا أنفسهم في منطلق التسليم ، وعرضوا أنفسهم لنبال القضاء ، جاعلين من أرواحهم وقلوبهم ترسا دونها. فهم يواجهون سهام القدر رابطي الجأش.

الثالث عشر : **مقام التوكل** : هم لا يطلبون شيئا من الخلائق ولا من الخالق. هم يعبدون الله من أجل نفسه لا غير. وليس ثمّة تبادل سؤال ولا جواب عليه. فالكون يتيح لهم بلوغ مشتهاهم عند الحاجة بغير حساب.

الرابع عشر : **مقام الزهد** : ليس لهم من مال هذه الدنيا إلاّ معطف مَوْصلي مرقّع ، وحصير وقطعة من اللباد. وهذا المعطف أعزّ عندهم ألف مرّة من النسيج الأحمر الناعم واللباس الأنيق.

الخامس عشر : **مقام العبادة** : شغلهم الشّاغل في أثناء النّهار قراءة القرآن وترديد اسم الله، وفي الليل بطوله يبقون واقفين على أرجلهم ، أجسادهم مستعدّة للخدمة ، وقلوبهم عامرة بحبّ الواحد ورؤوسهم تصبح طالبة مشاهدة الـــمَلِك.

السادس عشر : **مقام الورع** : لا يأكلون أيّ طعام اتّفَق ، ولا يلبسون أي كساء كان ولا يجالسون أيّا كان ، ولا يختارون من الرفقاء سوى الله له المجد.

السابع عشر : **مقام الإخلاص** : يحيون الليل بالصلاة ويقضون النهار بالصوم. إذا تمرّدت عليهم أرواحهم الدنيوية فانقادوا إليها ، يكونون قد باعوا خمسين سنة من الطاعة بشربة

ماء، ويلقون بالسنين الخمسين إلى كلب أو إلى أي كان. وعندها يقولون لها : أيّتها الرّوح ألا تدركين الآن أنّ الذي صنعته ، لا يليق بالله ؟

الثامن عشر : مقام الصدق : لا يخطون خطوة واحدة في غير الصدق ، ولا يطلقون نَفَساً واحدا إلاّ بالحقّ. ألسنتهم تتكلّم عن فضلة قلوبهم ، قلوبهم عن باطن أسرارهم وباطن أسرارهم عن الله.

التاسع عشر : مقام الخوف : عندما يتطلّعون إلى عدله يرتعدون خوفا ويفقدون الأمل بجزاء الطاعة.

العشرون : مقام الرجاء : عندما يعاينون بركته يطيرون فرحاً ، ولا يشعرون بخوف أو رعب.

الواحد والعشرون : مقام الفناء : هم يذيبون أرواحهم الدنيوية في بوتقة الفناء ويفنون عن كلّ ما هو دون الله. ألسنتهم لا تتحدّث عن أمور هذا العالم ولا يجري عليها إلاّ اسمه تعالى. أجسادهم لا تتحرّك إلاّ في طاعته ، وعقولهم لا تندفع إلى العمل إلاّ من أجله.

الثاني والعشرون : مقام البقاء : إذا التفتوا يمينا رأوا الله ، وإذا التفتوا شمالا رأوا الله ، فهم يرونه في أيّ وضع كانوا. يبقون ببقائه ويكتفون بما رتّب لهم ، وهم فرحون بداعي بركته وإحسانه.

الثالث والعشرون : مقام علم اليقين : عندما ينظرون بعين علم اليقين يرون من أوج السماء إلى حضيض الأرض ، دون أن يكون هناك أيّ حجاب.

الرابع والعشرون : مقام حق اليقين : عندما ينظرون بعين حق اليقين ، يعبرون إلى ما وراء كلّ مصنوع ومخلوق ، ويرون الله ، لا " كيف " و لا " لماذا " وبدون أيّ حجاب.

الخامس والعشرون : **مقام المعرفة** : هم يدركون الله عبر جميع الخلائق في العالمين وعبر جميع الناس ، ولا يُتّهمون في شيء من صحة إدراكهم.

السادس والعشرون : **مقام الجُهد** : يعبدونه بقلوبهم وأرواحهم ، ولا يتركون في طاعتهم مجالاً للشكّ.

السابع والعشرون : **مقام الولاية** : إنّ هذا العالم والعالم الثاني لا يصلحان لاحتواء همهم، وكل الجنة وخيراتها لا تعادل ذرّة في نظرهم.

الثامن والعشرون : **مقام المحبة** : في العالم برمّته لهم صديق " واحد " ، فحبهم واحد لأنّهم خارجا وداخلا هم مع " الواحد ". أجسادهم تعتزّ جذلا ، وقلوبهم تطير فرحا في حضوره القدسي. لا يفكّرون في ولد أو زوجة ولا في عالم الثراء.

التاسع والعشرون : **مقام الوَجد** : لا يُعثر عليهم في الدنيا ولا في المقابر ولا في البعث ولا على الصراط المستقيم (الجسر الممتدّ فوق الجحيم يُعبر عليه إلى النعيم). هم في أسمى مراتب الحضور ، وحيث هم ليس هناك إلاّ الله وهم.

الثلاثون : **مقام القرب** : إذا صرخوا يا الله! اغفر لجميع الكافرين والمتمرّدين والمشركين والثائرين من أجلنا ، فإنّ ربّ الكون لا يردّ طلبهم.

الواحد والثلاثون : **مقام التفكّر** : صديقهم الجميع هو اسمه تعالى ، وراحة أفكارهم مستقرّة في رسالته.

الثاني والثلاثون : **مقام الوصال** : أشخاصهم مع أنّها في هذا العالم ، إلاّ أنّ قلوبهم مع ربّهم.

الثالث والثلاثون : مقام الكشف : لا حجاب يقوم بين الله وقلوبهم ، فإذا نظروا إلى تحت فإنّ أبصارهم تمتدّ إلى حيث " غاوماهي " (مخلوق أسطوري يحمل الأرض ، نصفه سمكة ونصفه ثور) ، وإذا نظروا إلى فوق فإنّهم يرون العرش والأريكة والقلم واللوح المحفوظ حتّى حضيرة القدس ، لا يستتر عنهم شيء.

الرابع والثلاثون : مقام الخدمة : لا يتوقّفون عن أداء الخدمة طرفة عين ولا يغيبون عن "الصّديق " لحظة من الزمان.

الخامس والثلاثون : مقام التجريد : إذا أخذوا إلى الجحيم يلقون التحية ، وإذا أحضروا إلى النعيم يلقون التحية كذلك ، فلا النعيم يستخفّهم فرحا ولا الجحيم يستطيرهم فزعا. لا يتحوّلون عن صداقته ، ولا يملكون من حطام الدنيا شيئاً.

السادس والثلاثون : مقام التفريد : هم في العالم غرباء بين الخلائق إذا ضربوا لم يتخلّفوا عن الطريق ، وإذا ملقوا لم يغرّهم التمليق.

السابع والثلاثون : مقام الانبساط : هم متّصلون بالله ، إذا أرسل ربّ الكون ملاك الموت إليهم عند دنوّ الأجل لا يطيعون ولا يسمحون لأرواحهم بالرحيل إلاّ بأمر من "صديق العالم ". لا يخشون منكراً ولا نكيراً (الملكان اللذان يحاسبان الأموات في القبور). ولا يكترثون للبعث. لا يوجّهون خطاهم نحو السماء العليا ولا يديرون أنظارهم نحو وجوه الحوريات ومنازل الكواكب ، حتّى يظفروا برؤية الملك الغفّار.

الثامن والثلاثون : مقام التحقيق : جميعهم في حيرة يبكون ويندبون ، يهربون من سائر الخلائق ، ويتعلّقون بسلاسل رجائه.

التاسع والثلاثون : مقام النهاية : لقد بلغوا النزل القائم إلى جانب الطريق واجتازوا صحاري الفواجع ، وبعين القلب شاهدوا الله.

الأربعون : مقام التصوّف : الصوفي هو الذي تمّ له أن يَطْهُر من جميع الشهوات فكيانه الداخلي قد طهر من الشقاء ، وألفاظه خلت من الغفلة والطّيش والافتراء. فِكْرُه مشعٌّ ونظره منصرف عن العالم فقد تثقّفَ بالحقّ.

وكل هذه المقامات مختصّ بنبيّ من الأنبياء عليهم السلام ، أوّلهم آدم وآخرهم محمد عليهما وعلى سواهما من الأنبياء والرسل والملائكة المقربين السلام ، ورضي الله عن صحابة نبيّه جميعهم آمين[1]. فالأولياء يعتقدون أنّ ممارسة هذه المقامات والأحوال تُفتح أمام الإنسان إذا سلكها بنية صالحة وليس كغرض قائم بذاته ، وإنّما كخطوات تؤدّي إلى الله الذي هو فوق جميع أحوال الرّوح ومقاماتها ، الشيء الذي ينتج عنه ضمّ جميع حالات الكيان الإنساني الجسدية والنّفسية والرّوحية إلى المبدأ المشترك الذي يجمعها.

إنّ درس المقامات والأحوال يصوّر لنا فهم الأولياء للحياة الـــخُلقية. فالشخصية الـــخُلقية لا تنفكُّ تجاهد الأهواء والشهوات ولا تزال موجّهة القلب إلى النفحات الروحية وهذه الشواغل عند الاعتدال فيها تنشئ من المرء قوّة خُلقية تنفع في توجيه الإرادة على الصالح من الأعمال. وعقل العصر الحاضر لا يفهم في معظمه هذه الانشغالات الروحية لأنّه مندفعٌ في التيارات الواقعية ، فلم يعد يدرك ما فيها من الجلال والجمال. وأغلب الظنّ أنّ القلق في عالم العيش اليومي هو الذي ضيّق الخناق على المعاني الروحية لأنّها في نظر العقل الحاضر لا تقدّم إلى صاحبها شيئاً من الماديات. والحياة الروحية لا تنمو إلاّ في البيئات الّتي خفّت أثقالها في عالم العيش واستطاعت أن تغمض الجفون ولو للحظات لتنظر ما يجري في دنيا الوجدان.

[1] - سيد حسين نصر ، المرجع السابق ، ص 97.

الخـــاتـــمـــة

إنّ محاولة عقلنة التجربة الرّوحية الصّوفية وبالأخص سلوك الوليّ وما ينتج عنه من الكرامات ، أمر لا يقبله الفهم الصّحيح. إذ إنّ الكرامات تنتمي إلى جنس الوقائع الّتي لا تدرك بالعقل والحسّ ولا تقبل أن يقام عليها برهان.

ولئن ظلّ أتباع التأويل الحَرْفي لم يكثّفوا اهتمامهم بهذا التّراث الرّوحي الثّمين المتعلّق بالولاية وما يتبعها من ظواهر ، فقد جاء بعض المثقّفين المحدثين فنــزعوا منه من غير تمييز ، البذرة الصّالحة وغير الصّالحة ، وتكاتفوا على إخلاء الجو لظهور خرافات جديدة أعظم وأضرّ خطرا ، لأنّ امتهان الجانب السّلوكي الرّوحي هو احتثاث للتّصوّر الرّوحي لمحبّة الله ، وتجفيف لينابيع الدّين ذاته. وأيّ نفع يجتنيه الإنسان من ذلك.

ومهما يكون النّفور من الأولياء ومن سلوكهم في الفكر الحديث ، كما يكون النّفور من كلّ الغيبيات في عصر الفكر العلمي ، فلا يمكن إغفال أنّ الأغلبية من الجماهير في العالم المتحضّر ما تزال متمسّكة بهذا الفكر الغيبي كأعز ما تملك في حياتها. من ثمّ كان مهمّاً بحث هذا التّعلّق ، وما هي القوة الّتي يحملها الفكر الغيبي في طياته حتّى يملك ملايين الأحيال من البشرية في كلّ أمة وكلّ عصر وكلّ حضارة.

ومن خلال هذه الدّراسة خلص الباحث إلى بعض النتائج :

1- الكرامات تختلف عمّا شابهها من خوارق العادات وهي أنبل من أن تكون خداع ومكر، وأنّ الله تعالى يمنحها حقيقة لمن اتّــصف ببعض الشّروط الّتي استنتجها العلماء ، وعلى رأس هذه الشروط : تقوى الله تعالى وطاعته.

2- المعتمد عليه في الكرامات ، هو الكرامات المعنوية الّتي ذكرها أعلام الأمّة. وهي الاستقامة على الدّين وما يتبعها من فهم وعقل وتبصرة. فهي تشمل جميع مظاهر الحياة الرّوحية والمادية فتطبعها بطابع الجمال والجلال والتّسامح. ثمّ إنّ الكرامة الحقيقية هي الدّواء النّاجع لأدواء المجتمع بما تنطلي عليه من قيم روحية ومُثل خلقية ، و مبادئ اجتماعية.

3- إنّ الكلام عن الكرمات الحسّية الّتي كثرت في عصور الانحطاط خاصة ، وكثرة الدّراويش المزيّفين طمست جوهر الكرامة. فتعلّقت بها الذّات الشعبية حقبة من الزمان ، توقا لتجاوز مخاوفها وإحباطاتها وعجزها ، إلى رحابة الخلاص هناك في عالم " البركة والطّهر". هذا المفهوم الذي أزيح عن معناه الحقيقي وأصبح مرادفا لمعنى الاستسلام عن مقاومة كلّ ما يعترض في طريق الرّقي الحضاري والتّقدّم. ولأسباب أخرى أصبح الجمهور الشعبي يعيش مناخا خرافيا يؤمن فيه بكل داع من غير تمييز.

4- على الرغم من الطابع الخرافي لما يُروى في الحكايات المتعلقة بالكرامات ، فإنّها تحمل من الناحية الجمالية و الأدبية متعة و يجد القارئ فيها أفقا رحبا.

5- إنّ الوليّ ليس كما تصوره بعض الباحثين ساحرا ولا مشعوذا وإنما هو شخص تشرّب حكمة زمانه ، وفهم معنى الوحدة ، أو الاستمرار في حياته بين هذا العالم والعالم الآخر الذي آمن به. قد أدرك أنه مدعوّ لأن يتقبل هذا العالم الذي هو دار " فناء " بمقدار ما ينشد ويتعلّق بالعالم الآخر الذي هو دار " بقاء ". وكرامة الوليّ أن يعيش في هذا العالم الدنيوي فيما يجوز أن يسمّى باحة الفردوس ، فهو يحيى في مناخ من السّناء الرّوحي ، و لم لا المادي ، يتجلّى جماله في كلّ ما يقوله وينجزه. ثمّ إنّ الأولياء هم أهل المعرفة الرصينة والبصيرة النافذة و " الذّوق " السليم. وسلوكهم يولّد الشّعور المتزايد بالجمال الإلهي الذي يتجلّى في كلّ مكان في شتّى أنحاء الحياة فيصبغ عليها طابع القداسة القرآنية. وسلوك الوليّ، بالمعنى الحقيقي لكلمة وليّ ، يجيء بنظرة قدسية للحياة ويمنح لكلّ نشاط إنساني بعدا سماويا تغدو به الحياة طاهرة وذات معنى.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر :

- القرآن الكريم.
- صحيح البخاري الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري تحقيق محمد علي القطب المكتبة العصرية بيروت 1991.
- أبو القاسم عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية في علم التصوّف ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1957.

المراجع بالعربية :

- د. إبراهيم إبراهيم هلال : ولاية الله والطريق إليها ، دراسة وتحقيق لكتاب قطر الولي على حديث الوليّ للإمام الشوكاني (رسالة ماجستير) دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1969.
- ابن حجر أحمد بن محمد بن عليّ : الشيخ محمد عبد الوهاب عقيدته ودعوته الإصلاحية ، مطبعة الحكومة ، مكّة المكرّمة ، 1975.
- ابن عبد الوهاب محمد : كتاب التوحيد ، الرياض ، ط 5 ، 1984.
- ابن عجيبة الحسني : إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، 1982.
- ابن عطاء الله السكندري تاج الدين : لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العبّاس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، 1998.
- ابن عطاء الله السكندري تاج الدين : التنوير في إسقاط التدبير ، ط2 ، مطبعة مصطفى الثاني ، الحلبي ، مصر ، 1948.
- ابن مريم أبو عبد الله التلمساني : البستان في ذكر أولياء وعلماء تلمسان ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1986.

- ابن منظور : لسان العرب ، المجلد 15 ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1956.
- د. أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1985.
- أثين بلاثيوس : ابن عربي حياته ومذهبه ، ترجمه إلى العربية د. عبد الرحمان بدوي ، وكالة المطبوعات الكويت – دار العلم بيروت ، 1979.
- د. الأشقر سليمان : عالم السحر والشعوذة ، دار النفائس ، الأردن ، ط 3 ، 1997.
- الإمام ابن تيمية : الفرقان بين الحقّ والباطل ، مكتبة النهضة ، الجزائر ، دون تاريخ.
- الإمام ابن كثير إسماعيل : تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت ، 1982.
- الإمام الغزالي أبو حامد : إحياء علوم الدين ، ج4 ، القاهرة ، 1957.
- الإمام النووي يحي بن شرف : رياض الصالحين ، دار الفيحاء دمشق ، ط 13، 1991.
- الأنصاري : الرسالة القشيرية للأنصاري ، ج 3-4 ، دون تاريخ.
- الباقلاّني أبي بكر محمد بن الطيّب : البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسّحر والنارنجات ، صحّحه ونشره الأب رتشارد يوسف مكاتي الياسوعي ، المكتبة الشرقية ، بيروت ، 1958.
- البغدادي نجم الدين الطوفي : الانتصارات الإسلامية ، تحقيق : أحمد حجازي السقا ، مطبعة دار البيان ، 1983.
- د. الجوهري محمد : الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية ، ج1 ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1983.
- د. الراوي عبد الستّار عزّ الدين : التصّوف والبرابسيكولوجيا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، 1994.
- السلمان عبد العزيز : الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ، ط 14 ، مطابع المدينة ، 1996.

- السلّمي أبو عبد الرحمان : طبقات الصوفية ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، 1998.
- الشرنوبي عبد المجيد : شرح الحكم العطائية ، تعليق : عبد الفتاح البزم ، دار الهدى عين مليلة ، الجزائر ، ط1 ، 1991.
- ألفريد بيل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتّى اليوم ، ترجمة: عبد الرحمان بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط 3 ، 1987.
- الكندهلوي محمد يوسف : حياة الصحابة ، ج1 ، دار القلم ، دمشق ، 1969.
- د. الميلودي شغموم : المتخيّل والقدسي في التصوّف الإسلامي الحكاية والبركة ، منشورات المجلس البلدي لبلدية مكناس ، دون تاريخ.
- النبهاني يوسف بن إسماعيل : جامع كرامات الأولياء ، ج1-2 ، دار الفكر ، بيروت ، 1989.
- جلال شرف محمد : دراسة في التصوّف الإسلامي شخصيات ومذاهب ، دار النهضة العربية ، 1984.
- جمال الدين محمد : موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ، دار النفائس للطباعة ، بيروت ، ط8 ، 1994.
- حكيم ميلود : الكرامة الصوفية في منطقة تلمسان – دراسة أنثروبولوجية – سيميائية من خلال مدوّنة ابن مريم البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان (رسالة ماجستير) ، جامعة تلمسان ، 1998.
- د. خليل أحمد خليل : مضمون الأسطورة في الفكر العربي ، دار الطليعة ، بيوت ، ط، 1986.
- د. شريط عبد الله : الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1975.
- د. ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق : التصوّف ، دار الكتاب اللبناني ، ط1 ، 1984.

- د. مبارك زكي : التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، ج1-2 ، منشورات المكتبة العصرية ، دون تاريخ.
- د. مرتاض عبد المالك : الميثولوجيا عند العرب ، دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الدار التونسية للنشر ، 1989.
- موريس جيتانبارغ : نفسية المجتمع ، ترجمة عبد العزيز عبد الحق ، مكتبة الأنجلو-مصرية ، 1935.

المراجع بالفرنسية :

- L'ALGERIE, NATION ET SOCIETE : MUSTAPHA LACHREF, ED MASPERO-SNED, 1976.
- LES FANTASTIQUES FACULTES DU CERVEAU : SHEILA OSTRANDER-SHROEDER, ED ROBERT LAFFONT, PARIS, 1979.
- LA FORMATION SOCIALE ALGERIENNE PRECOLONIALE, ESSAIE D'ANALYSE THEORIQUE : A. MERED BOUDIA , OPU, 1981.
- LA MYTHOLOGIE :STEPHANE MALLARMÉ, CLUB DU LIVRE, 1991.
- LE SACRE AMBIGU : NOUREDINE TOUALBI ,ENAC, 1989.
- SAVANTS PAYSANS, ELEMENTS D'HISTOIRE SOCIALE SUR L'ALGERIE : FANNY COLLONA, OPU, 1987.
- LE SOUFISME ET LA TRADITION ISLAMIQUE : JEAN CHEVALIER, BIBLIOTHEQUE DES GRANDS MYSTERES, METZ, 1974.

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة
الـــمقـــدمـــة.	أ- د
الفصل الأوّل : الكرامات مفهومها وموقعها.	1
المبحث الأول : مفهوم الكرامة وعلاقتها بالوليّ.	1
I- مفهوم الكـــرامـــة عند أهل السنة وعند الصوفية.	1
رأي أهل السنّة في الكرامـــات.	1
رأي الصوفية في الكرامـــات.	4
II- مفهوم الوليّ عند أهل السنة وعند الصوفية.	5
III- وظيفـــة الكـــرامـــة.	14
المبحث الثاني : الكرامة وخوارق العادات.	18
I- الكرامـــة والخوارق الأخرى.	18
الكرامـــة والاستـــدراج.	19
الكرامـــة والسّحـــر.	20
الكرامـــة والمعجـــزة.	24
الكرامـــة والأسطـــورة.	27
II- الوليّ وادعاؤه للكرامة.	30
المبحث الثالث : الكرامة بين القبول والرفض.	33
I- موقف أهل السنة وضوابطهم.	33
ضوابط أهل السنة للكرامة.	38
II- موقف الصوفية من الكرامة.	39
III- نبوّة النساء وولايتهنّ.	45

IV- موقف القدرية والمعتزلة من الكرامة.	47
الفصل الثاني : الكرامات أنواعها وحقيقتها.	49
المبحث الأوّل : أنواع الكرامـــات.	49
I- الكرامات الحسية (الخارجية).	49
كرامات البصر.	50
كرامـــات الأذن والسمع.	51
كرامـــات النطق.	52
كرامـــات اليد.	53
كرامـــات المشي.	55
كرامـــات المأكـــل والملبس.	59
II- الكرامـــات الروحية أو الباطنية.	59
الكرامـــات القلب.	61
التجـــلّي.	62
المبحث الثاني : الكرامات عبر الأزمنة.	66
I- كرامات الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.	66
كرامـــات الصحابة.	66
كرامـــات التـــابعين.	81
II- كرامـــات العصور المتأخـــرّة.	88
المبحث الثالث : رؤى نقدية للكرامـــات.	94
I- رؤية ابن تيمية للكرامـــات.	94
تضليـــل الشياطين للإنســـان.	96
الجنّ مكلّفون مثل الإنس ويستمتع بعضهم ببعض.	98
II- رؤية الأنثروبولوجيين للكرامـــات.	101

III- رؤية بعض المثقفين المحدثين للكرامـــات. 106
الفصـــل الثالث : الوليّ بين الكرامة والتجربة الروحية. 114
المبحث الأوّل : وســـائل التقرّب إلى الله. 114
I- أعمـــال ظـــاهر الشرع. 114
الإيـــمـــان بالله ورســـوله. 114
القيـــام بالفرائـــض. 115
التقـــرّب بالصـــلاة. 117
التعبّـــد بالنوافـــل. 118
الإيـــمـــان بالقـــدر. 120
II- الأذكـــار المسنـــونة. 120
التقرّب بالذكـــر. 120
عظم أجر الدعـــــاء. 122
أذكـــار التوحيـــد. 123
الصـــلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم وفضلها. 123
ذكـــر الأوراد. 124
الأدعيـــة النبـــوية. 124
المبحث الثاني : أخـــلاق الوليّ وسلـــوكه. 126
I- مقـــام الإحســـان وتواضع الوليّ. 126
مقـــام الإحســـان. 126
تواضـــع الـــوليّ. 127
II- طهارة البـــاطن والسبيل إليها. 127
السبيـــل إلى طهـــارة البـــاطن. 128
المبحث الثالث : مظـــاهـــر الولاية. 130

I- المحـبة والـهدايـة. 130
محبـة الله للـوليّ. 130
هدايـة الله للوليّ وتوفيقه. 131
II- تكـريم الله للوليّ ونصـرته. 131
اللطـف والنصـرة. 132
المبحث الرابع : أساليب الرقيّ الروحي للوليّ. 133
I- الزهـد والـخلـوة. 134
الـزهـد. 134
الـخـلـوة. 136
II- أحـوال ومقـامـات الولـيّ. 145
الـخـاتـمـة. 154
الـمـراجـع. 156